
نانسي سبرينجر
NETFLIX
A NETFLIX FILM
إينولا
هولمز
وقضية اختفاء
الماركيز
ترجمة: باسم الخشن

إينولا هولمز

وقضية اختفاء الماركيز

نانسي سبرينجر

ترجمة باسم الخشن

كيان للنشر والتوزيع 2020

كلمة الغلاف

خطوات ثقيلة جاءت من ورائي، قفزت للأمام ناوية الفرار ولكني كنت متأخرة. الخطوات جاءت في أثري وقبضة حديدية أمسكت بذراعي. بدأت في الصراخ ولكن كفا فولاذيا وضع على فمي، وبالقرب من أذني صوت عميق قال بغضب: لو تحركِ ت أو صرخِ ت سأقتلِ ك. تجمدت من الهلع. بعيون متسعة حدقت إلى الظلام ولم أستطع الحركة، بالكاد استطعت التنفس وأنا واقفة ألهث. تركت قبضته يسراي، وتسللت حولي لتمسك بكلتا ذراعي بقوة لتضعهما على جانبي، دافعا ظهري ليضغط على ما كنت سأظن أنه حائط حجري لو لم أعرف أنه صدره. رفع يده من على فمي ولكن في لحظة قبل أن تستطيع شفاتي المرتعشتان أن تكِ ون صوتا، وفي الضوء الضعيف للشارع رأيت لمعة الحديد. نصل طويل وأملس كقطعة ثلج؛ نصل سكين. هل تستطيع إينولا الأخت الصغرى للمحقق الأشهر شارلوك هولمز أن تتفوق عليه في أول مغامراته.

الإهداء

إلى أمي ..

نانسي سبرينجر

«خطوات ثقيلة جاءت من ورائي، قفزتُ للأمام ناويةً الفرار ولكني كنتُ متأخرة.»

الخطوات جاءت في أثري وقبضةٌ حديدية أمسكتْ بذراعي. بدأتُ في الصراخ ولكنَّ كفًّا فولاذيًّا وُضع على فمي، وبالقرب من أذني صوت عميق قال بغضب: لو تحركتِ أو صرختِ سأقتلكِ.

تجمَّدتُ من الهلع.

بعيون مُتسعة حدقتُ إلى الظلام ولم أستطع الحركة، بالكاد استطعتُ التنفس وأنا واقفة ألهث.

تركتْ قبضته يُسراي، وتسللت حولي لتُمسك بكلتا ذراعيَّ بقوة لتضعهما على جانبيَّ، دافعًا ظهري ليضغط على ما كنتُ سأظن أنه حائط حجري لو لم أعرف أنه صدره.

رفع يده من على فمي ولكن في لحظةٍ قبل أن تستطيع شفاتي المرتعشتان أن تكوِّن صوتًا، وفي الضوء الضعيف للشارع رأيتُ لمعةَ الحديد.

نصْل طويل وأملس كقطعة ثلج؛ نصل سكين.

في الجانب الشرقي من لندن

بعد حلول الظلام أغسطس ١٨٨٨

كان الضوء الوحيد يأتي من لمبات الجاز التي بقِيتْ سليمة، ومن موقد نار فوق الرصيف يُزكيه رجل عجوز يبيع الحلزونات المسلوقة خارج الحانات.

الغريبة ترتدي الأسود بالكامل من قُبعتها حتى حذائها الطويل، انزلقتْ بين ظلٍّ وآخَر وكأنها ذاتها مجرَّد ظل. من حيث أتتْ كان وجودها في ذلك الوقت من الليل بدون مُرافق كزوجٍ أو أب أو أخ شيئًا لا يمكن تصوُّره.

ولكنها ستفعل كل ما يجب عليها فعله لتجد من ضاع.

عيناها المتستعتان تشاهدان من تحت غطاء وجهها الأسود، وتمسح بعينيها وهي تمشي، لا تتوقف عن البحث، ترى الزجاج مكسورًا على الأرصفة المتشققة، ترى فئرانًا يشقُّون طريقهم في جرأة من خلفهم أذيالهم المقززة.

ترى الأطفال يركضون حُفاة الأقدام بين الفئران والزجاج المكسور، وترى الأزواج؛ الرجال في فانلاتهم الحمراء، والنساء في قُبعات القش الرخيصة يتحركون ذراعًا في ذراع. ترى أحدَهم مُلقًى بجانب حائط، سكران أو نائمًا، بجانب الفئران.. ربما كان ميتًا.

تنظر وأيضًا تسمع في مكانٍ ما أحدهم يصدَح بأغنيةٍ في الهواء المليء بالسُّخام. الباحثة ذات الرداء الأسود تسمع موسيقى. تلك الموسيقى. وتسمع

أيضًا فتاةً تُنادي « أبي.. أبي؟» خارج أبواب حانة. تسمع صرخات، ضحكات، بكاء، سُكارى، بائعين ينادون: محار اغمِسْهم في الخل وابلعْهم مرةً واحدة. محارات مُمتلئة بِبُني واحد.

تشمُّ الخل، والجبن، والكرنب المسلوق، والسجق الساخن، والمياه المالحة للميناء المجاور، والرائحة النتنة لنهر «تامز».

تشم رائحة السمك، وتشم رائحة المجاري. تُسرع بخطواتها. يجب عليها أن تستمر في الحركة؛ فإنها ليست باحثة فقط، ولكن أحدَهم يبحث عنها أيضًا. ذات الصيادة ذات الرداء الأسود، أحدُهم يحاول صيدَها. يجب أن تتحرَّك بعيدًا حتى لا يجدها الرجل الذي يُطاردها.

عند عمود النور التالي ترى امرأةً بشفتين ملونتين وعينين ملطختين بالأصباغ تنتظر عند مدخل.

سائق أجرة وَسِيم يقف، ويترجل رجل يلبس سترةً ذات ذيل طويل وقبعة لامعة حريرية طويلة. بالرغم من أنَّ السيدة الواقفة عند المدخل ترتدي فستان سَهرة مفتوحًا كان في الأغلب ملكًا لسيدةٍ من المجتمع الراقي، فإنَّ ذات الرداء الأسود لم تفكر أن ذلك الرجل كان هنا من أجل الرقص. كانت ترى أنَّ عين العاهرة مليئة بالرعب، حتى وإن ارتسمَتْ على شفتيها الحمراوين بسمة واسعة. واحدة مثلها قد وجدت جُثتها على بُعد بضعة شوارع من هنا مشقوقة الجسد. تحركت ذات الرداء الأسود مُتجنبةً أن تُرى.

رجل ذو ذقن نابتة يستند إلى الحائط غمَز لها قائلًا: يا آنستي، ما الذي تفعلينه وحدك؟ ألا ترغبين في صُحبة؟

لو كان رجلًا نبيلًا لتجنَّب أن يُحادثها دون أن يتعرَّفا أولًا. أسرعت الخُطى من أمامه متجاهلةً إيَّاه. يجب عليها ألا تتحدَّث مع أحد، هي لا تنتمي إلى هنا، ومعرفتها بذلك لم تُضايقها؛ فهي لم تكن تنتمي لأي مكانٍ أبدًا. وبشكلٍ ما قد كانت وحيدة دائمًا، ولكنَّ قلبها لم يخلُ من الألم، وهي ما زالت تمسح الظلال، كونها لا تملك بيتًا الآن، هي غريبة في أكبر مدينةٍ في العالم، ولا تملك أدنى فكرةٍ أين ستقضي ليلتها، أو حتى إذا كانت ستحيا حتى الصباح. أملها الوحيد أن تجد من تبحث عنه؛ تخترق الظلال وحواري شرق لندن، وتمشي وحيدة.

أريد أن أعرف حقًّا لماذا أطلقتْ عليَّ أمي «إينولا»؛ فاسمي إذا عكسته بالإنجليزية تجد أنه «ألون alone» أي وحيدة، كانت أمي دائمًا –وربما ما تزال– عاشقة للشفرات.

وبالتأكيد كان هناك شيء ما يدور برأسها وهي تفعل ذلك كنذيرٍ أو كخُطة لحياتي. فحين سمَّتني لم يكن أبي قد مات بعد.

على أي حالٍ فقد كانت دائمًا ما تقول لي بشكل يكاد يكون يوميًّا في طفولتي: «ستكونين بخيرٍ وحدك يا إينولا».

كانت تُكرر لي ذلك شاردةً وهي تخرج بلوحتها وألوانها لتتجوَّل في الريف.

و«وحيدة» صِرتُ حين رحلت في أمسية من يوليو، في عيد ميلادي الرابع عشر حين لم تعُد لـ«فرندل هول» حيث كان منزلنا.

احتفلتُ بعيد ميلادي على أي حالٍ مع الخادم «لين»، وزوجته الطباخة. لم يُضايقني غياب أمي في البداية؛ فأنا وأمي لم نعتَد التدخُّل أبدًا في شئون بعضنا البعض، افترضتُ أن أمرًا هامًّا شغلَها، واضطرَّها للغياب، حيث إنها تركت لي طردًا مع السيدة «لين» لتُعطيني إيَّاه وقتَ الشاي.

كانت هدية أمي تتكوَّن من عدة رسْم؛ ورقة، قلم رصاص، سكِّين أقلامٍ لبَرْيِهم. مِمحاة مطَّاطية، كل ذلك مُرتب بعناية في صندوق خشبي يفتح

ليصبح حاملًا للرسم، وكتاب سميك بعنوان (معنى الزهور) يحتوي أيضًا على ملاحظاتٍ على الرسائل التي جاءت عن طريق المعجبين، ومناديل قماشية، وشمع، وأختام، وطوابع بريد، وكُتيب شفرات صغير.

بالرغم من قدراتي المتواضعة في الرسم؛ كانت أُمي دائمة التشجيع لي، كانت تعرف أنني أستمتع برسوماتي، وتعرف أني أحب أيضًا قراءة أي كتاب في أي موضوع كان؛ ولكن لم يكن موضوع الشفرات خاصَّةً موضعَ اهتمامي حقًّا.

بالرغم من ذلك فقد صنعَتْ ذلك الكتيب الصغير بيدِها كما هو واضح. طوَتْ وخاطت الصفحات، وزخرفته بألوان الماء.

من الواضح أنها كانت تعمل على تلك الهدية لفترةٍ طويلة. اهتمامها كان جليًّا. ظللتُ أخبر نفسي مرارًا بذلك طوال الأمسية، بينما لم أكن أملك أدنى فكرةٍ عن مكان أمي. توقَّعتُ أنها ستعود للمنزل أو أنها ستبعث برسالةٍ أثناء الليل. نِمْتُ بسلام ولكن في اليوم التالي حين هزَّ لين رأسه وهو يُخبرني أن سيدة المنزل لم تعُد بعد، ولم يأتِ أي خبر منها، في الخارج كان المطر الرمادي يتساقط مُتناسبًا مع حالتي المزاجية التي كانت تسُوء باطِّراد، بعد الإفطار. عدتُ متخاذلةً لغرفة نَومي كمَلجأ لطيف؛ حيث كان الدولاب والتسريحة مَطليَّين باللون الأبيض، وخليط من الوردي والأزرق بزخارف حول الأطراف. كان يُطلق على ذلك النوع أثاث كوخي، كان أثاثًا رخيصًا يصلح فقط لطفلٍ ولكني أحببتُه، أحببتُه في أغلب الأيام ولكن ليس اليوم. لم أستطع البقاء في

الداخل، لم أستطع البقاء مُنتظرة، ارتديتُ قميصًا، وبنطالًا قصيرًا.. ملابس مُريحة كانت تخصُّ إخوتي الكبار، وفوقها ارتديتُ معطفَ الأمطار، اتجهت للأسفل وأخذت مظلَّة من على المنضدة في الطُّرقة وخرجتُ من باب المطبخ بعد أن أخبرتُ السيدة «لين» أنني سأذهب لأُلقي نظرةً في الأنحاء.

غريب! تلك كانت نفس الكلمات التي أقولها اليوم حين أخرج لأبحث عن الأشياء، ولكن في العادة لم أكن أعرف ما الذي أبحث عنه.. أيُّ شيءٍ الحقيقة.. كنتُ أتسلَّق الأشجار لأرى ما الذي يوجَد هناك. قواقع حلزونات، فوقها خطوط صفراء وحمراء داكنة، قِشر بندق، أعشاش طيور، وإن وجدتُ عشَّ غرابٍ فإني أرى بداخله أشياء؛ أزرار، وشرائط لامعة، حَلَق ضائع لأحدِهم.. كنتُ أتظاهر أنَّ تلك أشياء ذات قيمة كبيرة. فكنتُ أبحث؛ ولكن تلك المرة لم أكن أتظاهر، والسيدة «لين» عرفت أن تلك المرة أيضًا مختلفة. ففي أي يومٍ آخر كانت ستقول لي كما تقول لي دائمًا «أين قُبعتك يا آنسة إينولا؟» فأنا كنتُ لا أرتديها أبدًا، ولكنها لم تقُل أي شيءٍ وهي تراني أذهب.. أذهب لأبحث عن أُمي. اعتقدتُ حقًّا أنه يمكن أن أجدها بنفسي، ما إن خرجت من المطبخ، ومن مجال رؤية من في المطبخ حتى بدأتُ في العدو، كنتُ أعدو في كل مكان ككلب صيد، أبحث عن أي أثرٍ لأُمي. في اليوم الماضي وبمناسبة عيد ميلادي، فقد سُمح لي أن أظلَّ في الفراش لوقتٍ متأخِّر؛ ولذا لم أرَ أُمي وهي تخرج، ولكن بافتراض أنها كالعادة قضتْ بضع

ساعاتٍ ترسم أزهارًا ونباتات، فقد بحثتُ عنها أولًا في «عزبة فرندل». كانت أُمي تحبُّ أن تترك كل ما ينمو ينمو.

سِرتُ هائمةً على وجهي عبر حدائق الزهور التي طالتها يد الإهمال، والمروج التي غزَتْها الأشجار البرية والنباتات الشائكة، غابات تكتنفها أغصان نباتات العنب واللبلاب المتسلقة. كل هذا بينما السماء الرمادية تنتحِب بدموعٍ من أمطارٍ من فوقي.

رينولد كلب الرعي العجوز كان يجري بجواري حتى تعِب من البلل، فتركَني ليجد مَخبَأً من الأمطار–كائن عاقل– كنت غارقةً حتى رُكبتيَّ، وكنتُ أعلم أنه يجب عليَّ أن أفعل مِثله، ولكن كان قلقي قد وصل لمداه، ومع قلقي كانت تزداد سُرعتي، كنتُ أشعر بالهلع والخوف يقودني كالسَّوط، هلَع أن تكون أمي مُلقاةً في مكان ما بعيدًا،مريضةً أو مُصابة بالأذى، خوف لا يمكن إنكاره؛ فأُمي لم تكن صغيرةً في السن، فربما أُصيبت بأزمة قلبية ، ربما كانت –وإن كان من الصعب أن يستطيع المرء أن يفكر في ذلك بكلماتٍ غير تلك– انتهتْ.. عبرَتْ.. رحلَت.. ذهبتْ لتكون مع أبي. لا.. أرجوك.. يظنُّ المرء حيث أنا وأمي لم نكن قريبَين أنَّ اختفاءها لم يكن ليؤثر عليَّ كثيرًا، ولكن ما حدث كان العكس تمامًا. راعَني ذلك. فقد شعرتُ أنَّ سوء الأمور بيننا كان خطئي بالكامل، شعرتُ دائمًا باللَّوم في كل شيء، كنتُ أُلامُ على أنِّي أتنفَّس حتى، لأني وُلدتُ في مرحلةٍ عمرية غير لائقة في حياة أمي، وكأنَّ الأمر

أشبَهُ بفضيحة؛ كنتُ حِملًا. كنتُ أعتمد دائمًا على أنِّي سوف أُصلح الأمور حين أكبر، في يومٍ ما.. أمَّلتُ في ذلك... كنتُ أخطط أن أجعل من حياتي نورًا ساطعًا يرفعني من ظلال الخزي، وبعدَها فإنَّ أُمي سوف تُحبني؛ لذا فيجب أن تكون حيَّة، ويجب أن أجدها. ركضتُ باحثةً في أنحاء الغابة التي كان يصطاد فيها أجيال من الإقطاعيين الأرانب، والدجاج البري، تسلَّقتُ صعودًا وهبوطًا عبر الصخور البارزة المغطَّاة بنباتات السرخس في الكهف الذي كان السبب وراء الاسم الذي حمَلَتْهُ المقاطعة.

مكان أحببتُه لكني اليوم لم أُطِل البقاء، استمررتُ حتى أطراف الحديقة حيث انتهتِ الأشجار، وبدأتِ الأراضي الزراعية. استمررتُ في البحث داخل الحقول، حيث إنَّ أمي كان من الممكن أن تكون هناك من أجل الزهور. ولأنَّ «فرندل» قريبة من المدينة؛ فإنَّ القاطنين فيها كانوا يزرعون أزهار الزنابق وزهور البنفسج بدلًا من الخضراوات، حيث كانوا يُنمُّونها أفضل بتوصيل زهور جديدة يوميًّا لحديقة «كوفنت». هناك ما يُنمِّي صفوفًا من الورود، محاصيل زهور الكربسيز الذهبية، وزهور الزينيا والخشخاش، كلها من أجل لندن.

كنت أحلم وأنا أتأمَّل حقول الزهور، بمدينةٍ مُبهرة مضيئة، كلَّ يومٍ تمرُّ الخادمات ليضعنَ باقةً من الزهور في كل غرفةٍ من غرَف القصر كلَّ صباح. وفي كل ليلة كانت السيدات النبيلات يتعطَّرنَ ويُزيِّنَّ شعورهنَّ وقمصانهن بشقائق النعمان والبنفسج. لندن حيث.. ولكن اليوم فدادين الزهور المبلَّلة

بالمطر وأحلامي لم تدُم أكثر من نفسٍ أو اثنين قبل أن تتبخَّر مثل الضباب المتصاعد من الحقول.. تلك الحقول الشاسعة الممتدَّة لأميال. أين أُمي؟ أترى -في أحلامي عن أُمي وليس أحلامي عن لندن- كنتُ أجدها؟ كنتُ بطلة، كنت بطلة قصَّتي، وكانت تتأمَّلني بكل الامتنان والحب. ولكن كانت تلك مجرد أحلام، وكنتُ غبية.

حتى الآن بحثتُ في ربع الأملاك أو أقل، ما تزال هناك الأراضي الزراعية. لو كانت أمي الآن تركض مُصابة فسترحَل عن عالمِنا قبل أن أستطيع أن أجدها بنفسي.

استدرتُ وعدتُ مُسرعةً إلى القصر وحين وصلتُ إلى مدخل القصر أحاط بي كلٌّ من السيد والسيدة لين كزوجَيْ حمام وهو يخلع عنِّي كلًّا من المظلة والمعطف وحذائي الغارق، بينما اقتادتْني السيدة لين ناحية المطبخ لأحصل على بعض الدفء. لم يكن بإمكانها تعنيفي، ولكنها أوضحتْ رأيها فيما فعلْتُهُ قائلة: الشخص الذي يبقى في المطر لعددٍ كبير من الساعات لا بدَّ أن يكون غير عاقل.

قالتها موجهةً حديثها للموقد الكبير الذي يعمل بالفحم وهي ترفع أحد أغطيتِه: لا يهمُّ إن كان هذا الشخص أرستقراطيًّا أو من العامَّة؛ فإنَّ البرد يستطيع أن يقتُلَه.

أما تلك الجملة فقد كانت موجَّهةً إلى إبريق الشاي، فلم يكن هناك حاجة إلى ردٍّ منّي. فغير مسموح لها أن تقول لي أيَّ شيءٍ من هذا القبيل.

– من الجيد أن يكون للشخص عقل مُستقل دون أن يُلقي بذاته في التهلكة ويُصاب بالالتهاب الرئوي أو ما هو أسوأ.

أما ذلك فقد قالته إلى أكواب الشاي قبل أن تلتفِتَ إليَّ مُغيِّرةً من لهجتها: أستميحك عذرًا يا آنسة «إينولا» هل ستتناولين الغداء؟ وألن تُقرِّبي كرسيك من الموقد قليلًا؟

– لو اقتربتُ أكثر من ذلك سوف أتحمَّص مثل التوست.. لا، لا أريد تناول الغداء. هل هناك أي أخبارٍ عن أمي؟

كنت أعرف الجواب بالفعل، ولكني لم أتمالك نفسي من التساؤل، بالتأكيد السيد أو السيدة لين كانا سوف يُخبراني في الحال إذا أتاهُما أيُّ خبر.

– لا، لا شيء يا آنستي.

حشرَتْ يدَيها في مئزرها وكأنها تلفُّ طفلًا رضيعًا. قمتُ واقفة.

– هناك بعض الخطابات أُريد أن أكتبها.

– آنسة «إينولا» لا توجد مدفأة في المكتبة، دَعيني أُحضِر لك الأشياء التي تحتاجينها هنا على الطاولة.

استحسنتُ فكرة أنني لن أُضطرَّ إلى الجلوس على الكرسي الجلدي الضخم في غرفة المكتبة القاتمة.

جلبَتْ لي السيدة «لين» الورق المطبوع عليه شعار العائلة والمِحبرة والقلم من المكتبة، وبعضًا من الورق النشاف.

غمستُ القلم في المحبرة، وخطَطْتُ على الورق باللون الكريمي كلماتٍ للشرطة لأُخبرهم أنه يبدو أنَّ والدتي قد ضلَّت طريقها، وطلبتُ أن يُنظِّم بحث عنها، ثم جلستُ مفكرةً هل يجب عليَّ حقًّا؟ للأسف نعم، لم يكن بالإمكان تأجيل الأمر أكثر من ذلك. كتبتُ برقيةً أخرى ولكني كتبتُها ببطء شديد، كانت تلك البرقية ستقتطع أميالًا عبر الأسلاك لتُطبع بعد ذلك على النحو التالي:

السيدة «يودوريا فيرينت هولمز» مفقودة منذ يوم أمس – نقطة –

برجاء تقديم المشورة – نقطة –

إينولا هولمز

أُوجِّه تلك البرقية إلى كلٍّ من «مايكروفت هولمز» القاطن في «بال مول» بلندن.

وإلى «شيرلوك هولمز» في شارع «بيكر ستريت» بلندن،

أخويَّ الاثنين.

بعد أن أنهيتُ كوب الشاي إرضاءً للسيدة «لين»، بدَّلت ملابسي، وقرَّرتُ أن أتجه للقرية لإيصال برقيتي.

قالت السيدة «لين» وهي تفرُك يديها داخل مئزرها مرةً أخرى: ولكنَّ المطر والبلل... دعي «ديك» يأخذهم.

كانت تتحدَّث عن ابنها الأكبر الذي يقوم بعدَّة وظائف غريبة في أنحاء العزبة تاركين مهمة الإشراف عليه للكلب «ريجينالد» كونَه أكثر ذكاءً من «ديك». لم أُرد أن أخبر السيدة «لين» أنَّني لا يمكنني الوثوق بـ«ديك» لمِثل هذه المهمة فأخبرتُها أني سأحتاج أن أسأل في الأنحاء أثناء وجودي هناك، وسوف آخُذ الدرَّاجة.

لم تكن الدرَّاجة من الطراز القديم ذي العجلات العالية، ولكنها دراجة حديثة قصيرة إطاراتها مُتماثلة، وآمنة تمامًا.

بدَّلتُ عبر رذاذ الأمطار وتوقفتُ لدقيقة بجوار بيت حارس العزبة. وأصدقكم القول، كان منزلًا من الحجر يحاول نفخ صدرِه ليبدوَ أكبر، لكنه يمتلك ممرًّا، بوابة، ولهذا كان يصلُح كَبَيت.

– «كوبر»؟

سألتُ الحارس: هلَّا فتحتَ البوابة من أجلي؟ وبالمناسبة، أتتذكَّر إذا كانت فُتِحَت البوابة لأُمِّي ليلة أمس؟

دون أن يخفي دهشته من السؤال أجاب بالنفي: لم تمرَّ السيدة «هولمز» من هذا الطريق.

بعد أن فتح لي البوابة بدَّلتُ لمسافةٍ قصيرة حتى وصلتُ إلى قرية «كينفورد».

بعثتُ ببرقيَّاتي في مكتب البريد، وتركتُ رسالتي الأخرى في مكتب الشرطة وتحدثتُ مع الضابط قليلًا، ثم بدأتُ جولاتي؛ مررتُ بالكنيسة، ومحل الخضراوات، والمخبز، والجزار، ومحل الحلويات، ومحل السمك، وكل مكانٍ آخَر يمكن المرور عليه لأسأل عن أمي دون إثارة الضجَّة.

لم يرَها أحد.

زوجة الكاهن رفعتْ حاجبَيها وأنا أسألها، ولكن أعتقد أنَّ ذلك كان بسبب ملابسي. فقد كان عليَّ ارتداء شيءٍ مناسبٍ أكثر من وجهة نظرهم وأنا أقود الدرَّاجة خارج العزبة. ربما سروالًا مُغطًّى بتنُّورةٍ مقاومة للماء أو أي تنُّورة طويلة بما يكفي لتُغطِّي كاحِلي، وليس هذا البنطال القصير الفضفاض.

كُنت أعلم أنَّ والدتي تعرَّضتْ لانتقاداتٍ حادةٍ بسبب فشلِها في تغطية الأشياء الفجَّة مثل كوَّة الفحم، ظهْر البيانو، وأنا.

كنت طفلةً صادمة، لم أُشكِّك أبدًا في عاري، لأنَّ ذلك كان من شأنه أن يتطرَّق إلى أمورٍ لا يجب على فتاة مُهذَّبة معرفتها. لكني لاحظتُ أن معظم

النساءِ المتزوِّجات يَختفينَ في منازلهن كلَّ عامٍ أو عامَين ليخرجوا بعد عدة أشهر بطفلٍ جديد. قد يصل العدد إلى دستة أطفال حتى يتوقَّفوا عن ذلك، أو تنتهي صلاحيتهم. وبالمقارنة فإنَّ أُمي قد جاءت فقط بشقيقي الأكبر سنًّا حتى وصولي المتأخِّر الذي رفع القيد الذي وضعتْهُ على نفسها، مما جعل الأمر أكثر خِزيًا لرجلٍ عقلاني مثل أبي، ولزوجته الفنانة طيبة المِعشر.

بينما أتجوَّل في أرجاء «كينفورد» استمرَّت الحواجب في الارتفاع، والرءوس في التقارُب والهمس. تلك المرة بدأتُ في السؤال في النُّزُل، وعند الحدَّاد، وصانع التبْغ، وحتى الحانة؛ أماكن نادرًا ما تطؤها النساء المهذَّبات، ولم أحصل على أي معلومة جديدة.

وبالرغم من كل محاولاتي في أن تبدو أسئلتي عابرة، فكان يمكنني سماع أوركسترا النميمة والشائعات يعلو ويكبُر وأنا عائدة أجرُّ أذيال الخيبة لعزبة «فرنديل».

«لم يرَها أحد»، أجبتُ على سؤال السيدة «لين» الصامت الذي كان يظهر في عينَيها.

«ولا يملك أيُّ شخصٍ فكرة عن مكانها».

أُشيحُ مرةً أخرى عن عرضها لتقديم الغداء لي، على الرغم من أن وقت الشاي قد اقترب.

اتَّجهتُ لأعلى لجناح نوم أُمي. وقفتُ في الطرقة مُفكرة؛ أمي تُبقي باب جناحها مُسكّرًا لتُجنِّب السيدة «لين» عناء ترتيب غرفتها؛ فقد كانت تنظف غرفتها بنفسها، وبالكاد كانت تسمح لأي شخصٍ بالدخول، ولكن في تلك الظروف...

قرَّرتُ أن أمضي قدمًا. عندما وضعت يدي على مقبض الباب توقَّعت أن يكون مُسكّرًا وأن أطلُب من السيدة «لين» البحث عن المفتاح، ولكنَّ المقبض دار في قبضتي، وفُتح الباب. عرفتُ في لحظتها أنَّ كل شيءٍ قد تغيَّر. وأنا أنظُر في صمتٍ لغرفة أمي الخالية، شعرتُ وكأني في مكان عبادة أكثر ممَّا لو كنتُ في كنيسة الآن. كنت قد قرأتُ كتب أبي عن المنطق، وقرأت لمالثوث وداروين، ومثل أبويَّ كنتُ أومن بوجهات النظر العقلانية والعلمية، ولكنَّ وجودي في غرفة أمي جعلَني أشعُر أنَّني أريد التصديق بشيءٍ ما، في الرُّوح ربما.

صنعَتْ أُمي من تلك الغرفة مِحرابًا فنيًّا، زُيِّنت النوافذ بلوحاتٍ من الحرير الياباني بنقش اللوتس، مالت للخلف لتُضيء على الأثاث الرشيق المصنوع من خشب القيقب الذي نُحت ليُماثل الخيزران، يختلف تمامًا عن الماهوجني القاتم الضخم، الذي فُرِدَ بالأسفل.

في الأسفل كان كل الخشب قد تمَّ تلميعه، وغُطِّيت النوافذ بستائر ثقيلة، ومن على الجدران حدَّقَت بنا الصور الزيتية القاتمة لأسلافنا، ولكن هنا وفي عالَم أُمي كان الخشب مَطليًّا باللون الأبيض. وعلى الجدران الباستيل عُلِّقت مئات

من الزهور المرسومة بألوان الماء؛ كلُّ صورةٍ لا يزيد حجمها على ورقة كتابة مؤطَّرة بخفَّة. للحظةٍ شعرتُ أن أمي هنا في الغرفة، وكأنها كانت هنا طوال الوقت.

بنعومةٍ وكأني أخاف أن أُزعِجها، تحرَّكتُ على أطراف أصابعي للغرفة التالية. الاستوديو الخاص بها. كانت غرفة عادية بها نوافذ مكشوفة من أجل دخول الضوء. وأرضية بلُّوط عارية لسهولة التنظيف. أمسح بعينيَّ الحامل وطاولة الرسم، ورفوف الورق واللوازم. جذب نظري صندوق خشبي فعقدتُ حاجبيَّ؛ أينما تذهب أُمي فهي دائمًا تأخذ معها مجموعة ألوانها المائية، ولكني افترضتُ... يا لغبائي! كان عليَّ أن أبحث هنا أولًا. هي لم تخرُج لتدرُس الزهور إطلاقًا، لقد ذهبت لمكانٍ ما لسببٍ ما، ولكني لا أعرِف كيف ظننتُ أني سأستطيع أن أجِدَها بنفسي. كنتُ غبية.. غبية.. غبية. خطواتي الآن ثقيلة، عبرتُ الباب التالي لأصِل إلى غرفة نوم أُمي، ثم توقَّفتُ مذهولةً لعدة أسباب.

أولًا فراشها النحاسي كان في حالة فوضى، كلُّ نهارٍ مرَّ عليَّ في حياتي كانت أمي تتأكد أنَّ فراشي قد تمَّ إعداده بعد الإفطار، بالتأكيد ما كانت لتترُك فراشها والملاءات مُلقاة بمثل هذا الشكل والوسادات قد خرجت من أكياسها، ومُلقاة على السفرة الفارسية.

والأكثر من ذلك فإنَّ ملابسها لم تكن مُرتَّبة وفي مكانها تنُّورة الخروج البُنيَّة خاصَّتها كانت مُلقاة بإهمالٍ فوق المرآة. ولكن إن لم تكن ترتدي ملابسها المعتادة مع التنُّورة التي ترفع حتى وسطها كي لا تتَّسخ، ولكن يسهُل إسدالها سريعًا في حال ظهور أي رجلٍ، وهي أكثر ملابسها عمليَّةً، فما الذي ترتديه الآن؟

أفتح الستائر المخمليَّة لأسمح بدخول الضوء من النوافذ، فتحتُ أبواب خزانة الملابس ثم وقفتُ محاوِلةً أن أفهمَ خليط الملابس المتكدِّسة؛ صوف على شاش على قطن، وقطن دمشقي أيضًا وحرير وتُلٌّ ومخمل. كانت أُمي كما ترَون مفكرةً حُرَّة وكانت لها شخصية مُميزة مناصِرة لحقوق المرأة، وداعية لحُرية وتجديد ملابس النساء كالعباءات الناعمة التي باعها لها روسكن، ولكنها بالرغم من ذلك كانت لا تزال أرملةً لرجلٍ ذي شأنٍ سواء أعجبَها ذلك أم لا، ويقع عليها بعض الواجبات التي تحتاج أزياءً أكثر رسمية. فتجِد الفساتين وأردية العشاءِ مُنخفضة العُنق وعباءة الأوبرا، وثوب الحفلات ذا اللون الأرجواني الذي ارتدَتْه أُمِّي لسنواتٍ ولم تهتمَّ إذا كان ما يزال يُعتبر من الموضة الرائجة أم لا، ولم تكن تتخلَّص من أي شيء.

كان هناك أيضًا رداء الأرامل الأسود الذي ظلَّت ترتديه لمدة عام بعد وفاة والدي، وكان هناك رداء الصيد الأخضر البرونزي المتبقِّي من أيام خروجها لصيد الثعالب، وكان هناك زِيُّها الرمادي الخاص برحلاتها للمدينة، وعباءات

الفَرو وسُترات السِّتان المبطَّنة، والتنانير المزركشة، وبلوزات على بلوزات، لم أتمكَّن من تحديد ما الذي يمكن أن يكون ناقصًا من تلك المتاهة من البنفسج والمارون والرمادي والأزرق والزيتوني والأسود والعنبر والبُني. أغلقتُ أبواب خزانة الملابس ووقفتُ حائرة أنظر من حولي للغرفة التي كانت في حالة من الفوضى. نِصفَا المِشَدِّ وبعضٌ من الملابس الداخلية كانت مُلقاةً على مرأى من مكاني على الأرضية الرخامية في الحمام، وعلى طاولة الزينة كان هناك غرَض غريب يبدو كوسادةٍ ولكن وكأنها مصنوعة من لفائف زُنبركية كأنه مصنوع من الأنابيب والخيش. تناولتُ ذلك الشيء الغريب دون أن أتمكَّن من فكِّ طبيعته، حملتُه معي وأنا في طريقي للخروج من غرفة أمي. في ردهة الطابق السُّفلي قابلتُ السيد «لين» وهو يُلمِّع الخشب، وعرضتُ عليه ما وجدتُ سائلة: «لين» ما هذا؟

كونه خادمًا مُحترفًا فقد بذل قصارى جهده كي لا تظهر أيٌّ تعبيراتٍ على وجهه، ورغم ذلك فقد تلعثَم قليلًا وهو يقول: آاااا.. آاااا.. إنَّ هذا مُحسِّن لل.. ثوب يا سيدة.. يا آنسة «إينولا».

مُحسِّن ثوب! بالتأكيد ليس للجهة الأمامية، لا بدَّ أنَّ ارتداءه يكون على الظهر. وفجأة استوعبتُ أنني أُمسك في يدي في حضور رجلٍ الغرَض الذي يُوضَع في حشوة أرداف الفستان ليُبقِيَه مفرودًا ويدعم الثَّنيات. صرختُ فجأة: أستميحك عذرًا.

وأنا أشعُر بوجنتيَّ تشتعلان من الخجل؛ لم تكن لديَّ فكرة، لم أكن أعرف.

لم أرتدِ حشو أرداف من قبل، لذا لم أرَ ذلك الشيء أبدًا.

- أُقدِّم لك ألف اعتذار.

وفجأةً ألحَّت فكرة جعلتني أتغلَّب على إحراجي لأسأل: «لين» ما نوعية الملابس التي كانت أمي ترتديها حين غادرت المنزل صباح أمس؟

- من الصعب عليَّ أن أتذكَّر يا آنستي.

- هل كانت تحمل أي نوع من الأمتعة أو الطرود؟

- في الواقع لا يا آنستي.

- ولا حتى حقيبة يدٍ صغيرة؟

- لا يا آنستي.

كان من النادر أن تحمِل أُمي أي شيء من هذا النوع.

- أعتقد أنني كنتُ سألاحظ لو كانت تحمل أي شيء.

- هل كانت ترتدي زيًّا يحتوي على أهـ...

لم أستطع تمامًا أن أستخدِم كلمة حشو أرداف وأنا أتحدَّث إلى رجل.

- به بطانة؟ حشوة؟

لم يكن هذا من عاداتها، فبمجرَّد أن سألتُ بدأت ذكرى ترتسِم في عينيَّ ليهزَّ رأسَه قائلًا: لا يُمكنني أن أتذكَّر ملابسها بالضبط يا آنسة «إينولا»، ولكني أتذكَّر أنها كانت ترتدي رداءً منفوخًا من الخلف.

نفس نوعية الملابس التي تحتاج لحشو الأرداف، وأكمل قائلا: وقُبعتها الرمادية الطويلة.

كنت أعرف تلك القبعة، كانت تُعطي مظهرًا عسكريًّا وكأنها وعاء زهور مقلوب كان المتبذِّلون يُسمُّونها ثلاثة طوابق وقبو.

- وحملتْ مظلة المشي خاصَّتها.

كانت أداة طويلة سوداء تُستخدَم كعصا مشي، وكانت قوية كعصيان الرجال.

كم هو غريب أن تخرج أُمي بمظلةٍ رجولية وقُبعة رجولية، ومع ذلك ترتدي فستانًا ذا خلفية أنثوية جدًّا.

الفصل الثالث

قبل العشاء بقليل جاء صبي بِرَدٍّ من أخويَّ:

نصِل في أول قطار لتشيسوريليا صباحًا - نقطة -

برجاء مُلاقاتي في المحطة - نقطة -

إم وإس هولمز

تشيسوريليا كانت أقرب مدينة بها محطة سكة حديد، وكانت تبعُد عشرة أميال خلف كينفورد، كي أصل قبل ذلك القطار الباكر كان عليَّ التحرك عند الفجر.

استعدادًا لذلك استحممتُ في المساء، وكان ذلك شيئًا مُزعجًا، وأنا أسحب الحوض المعدني من تحت السرير وأضعه أمام الموقد وأحمِل دلاء المياه للطابق العلوي لأملأه، ثُم غلي المياه وحمل غلَّايات المياه لأعلى كي أصُبَّها من أجل الدفء. لم تساعدني السيدة «لين» في إشعال بعض النيران داخل حجرتي للحفاظ على الدفء بالرغم من كونها في فصل الصيف. فقد أُصيبت بروماتيزم مفاجئ في ذراعيها لذا لم أتمكن من غسل شعري دون مساعدتها.

اتَّجهتُ للفراش مباشرة بعد الاستحمام، ووضعت السيدة «لين» زجاجات من الماء الساخن تحت قدميَّ.

في الصباح قمتُ بتمشيط شعري مائة مرة محاوِلةً أن أجعله أكثر لمعانًا، ثم ربطتُه بشريطٍ أبيض يتناسب مع الرداء الأبيض الذي ترتديه الفتيات الارستقراطيات ووجَبَ عليَّ ارتداؤه. أنتم تعلمون، من أجل أن تظهر كلُّ بقعة تراب ممكنة ارتديتُ أجدَدَ فستانٍ لديَّ مع بنطال دانتيل أبيض لطيف تحته وجوارب سوداء تقليدية مع حذاء أسود لمعتْه لي السيدة «لين».

بعد تضييع الكثير من الوقت في ارتداء الملابس في تلك الساعة المبكرة لم يكن لدي وقتٌ كافٍ لتناول الإفطار.

خطفت شالًا من على الرف الموجود في الردهة حيث إنه كان صباحًا باردًا جدًّا، وانطلقتُ على درَّاجتي أُبدِّل بقوة كي أصل في موعدي.

كان ركوب الدراجات يسمح للمرء أن يُفكر دون أن يخشى أن يلحظ أحدُهم تعابير وجهه.

كان في ذلك راحة ولكن بالكاد أستطيع أن أقول إني مرتاحة وأنا أفكر في الأحداث الأخيرة وأنا أُسرع عبر كينفورد لآخُذ طريق تشيسورليا، أتساءل ما الذي حدث لأمي محاوِلةً ألَّا أطيل التفكير في ذلك، تساءلتُ إن كنتُ سأجد صعوبة في العثور في محطة السكة الحديدية على أخويَّ. أتساءل عن تسمية أُمي لأخويّ مايكروفت وشيرلوك إلى الوراء تهجِّي أسمائهم «كولراش» و«تفوركيام».

أتساءل لو كانت أمي بخير. «فكِّري في مايكروفت وشيرلوك» عندها أتساءل هل سأستطيع التعرُّف عليهما في محطة القطار؟

فأنا لم أرهُما منذ أن كنتُ في الرابعة من عمري في جنازة أبي، جُلُّ ما أتذكَّره أنهما كانا يبدوَان فارِهَي الطول بقُبَّعتيهما الطويلتَين. وسترتيهما الطويلتَين السوداوين، وقفازاتهما السوداء، والأشرطة السوداء المربوطة على أكتافهما، وأحذيتهم الجلديَّة السوداء اللامعة. أتساءل لو كان رحيل أبي كان ناتجًا من وجودي المخزي، كما كان يُخبرني أطفال القرية، أم أنه حقًّا لم يحتمِل الحُمَّى والتهاب الجنبة كما كانت تُخبرني أمِّي. أتساءل لو كان أخوايَ سيستطيعان التعرُّف عليَّ بعد مرور عشر سنوات. لماذا لم يَزورانا أنا وأمي، ولماذا لم نزُرْهما؟ بالطبع كنتُ أعرف أنه بسبب العار الذي ألحقتُهُ على عائلتي، بكوني وُلِدتُ.

لم يكن من المناسب لأخويَّ أن تربطهما أي صلةٍ بنا؛ مايكروفت كان رجلًا مهمًّا مشغولًا يعمل في جهةٍ حكومية هامة في لندن، وأخي شيرلوك كان مُحققًا شهيرًا.

هناك كتاب قد كُتب عنه بعنوان «دراسة في القرمزي»، كتبَه صديقه وزميله دكتور «جون واطسون»، أُمي قد ابتاعت نُسخة -لا تفكري في أُمي- قرأتها كِلتانا، ومن وقتها وأنا أحلُم بلندن.. الميناء العظيم.. مقر الملكية، ومركز المجتمع الراقي، ولكن بالرغم من ذلك -وفقًا لما يقوله دكتور واطسون- فهي تلك البالوعة العظيمة التي ينجذِب إليها المتسكِّعون والعاطِلون في الإمبراطورية.

لندن حيث الرجال بربطات العنق البيضاء، والنساء المرصَّعات بالماس، يحضرون حفلات الأوبرا، بينما في الشوارع سائقو الحناطير قُساة القلوب يدفعون الخيول للعمل حتى حافة الهلاك وفقًا لكاتبٍ مُفضَّل آخَر لي في كتاب جمال الأسود.

لندن حيث طالبو العِلم يقرءون في المتحف البريطاني وتتجمهر الحشود في المسارح ليذهلوا.. لندن حيث المشاهير يعقدون جلسات تحضير الأرواح، ليتواصلوا مع الموتى، بينما يحاول مشاهير آخرون أن يُفسِّروا علميًّا كيف تمكَّن مُحضِّر الأرواح الطفو بجسده ليخرج من النافذة ليدخل في عربةٍ كانت في انتظاره.

لندن حيث الأولاد المشرَّدون يرتدون الأثمال البالية، وينتشرون في الشوارع لا يذهبون إلى المدرسة أبدًا.

لندن حيث الأشرار يقتلون سيدات الليل - لم يكن لدي فكرة واضحة عمن يكنَّ سيدات الليل بالضبط- ويأخذون أطفالهنَّ ليبيعوهم للعبودية.

في لندن حيث الملكية والبلطجية.. في لندن حيث الموسيقيون العظام والفنانون العظام والمجرمون العظام أيضًا الذين يخطفون الأطفال ويُجبرونهم على العمل في أوكار الإثم - لم يكن لديَّ فكرة واضحة عماذا تكون تلك الأوكار أيضًا- ولكني أعرف أن أخي شيرلوك كانت الأسرة الملكية تُوظِّفه في بعض الأحيان ليخترق تلك الأوكار، مُجابهًا بذكائه أولئك البلطجية واللصوص وأمراء الجريمة.

أخي شيرلوك كان بطلًا.

تذكرتُ دكتور واطسون وهو يُعَدِّد إنجازات أخي؛ مُثقَّف، كيميائي، عازف كمان متمكن، قنَّاص لا يُشقُّ له غبار، مُبارز، متمرِّس في التحطيب، ملاكم، ومُفكر استنتاجي على غير العادة.

صنعتُ قائمة بإنجازاتي الخاصة في عقلي، أستطيع القراءة، أستطيع الكتابة، أستطيع الحساب، أجد أعشاش الطيور، أُخرج الديدان من الأرض، أصطاد السمك.. ماذا أيضًا؟ نعم بالطبع.. أستطيع قيادة الدراجة.

كانت المقارنة تُصيبني بالكآبة فتوقَّفت عن التفكير، وصببتُ كامل تركيزي على الطريق، وكنتُ قد اقتربتُ من حدود «تشيسورليا».

أهابتني الحشود في الشوارع المرصوفة بالحصى، كان عليَّ أن أشقَّ طريقي بين الأشخاص والمركبات التي لا تُشبه شيئًا كطُرق «كينفورد» الترابية.

كان هناك رجال يبيعون الفاكهة، على العربات المدفوعة باليد، ونساء يبعنَ الحلوى في سلال، ومُربيات يدفعنَ عربات الأطفال، والكثير من المارة يحاولون ألا يُدهَسوا بالعربات.

كان هناك الكثير من العربات؛ عربات فحم، عربات حطب، وعربات كبيرة يسحبُها ما لا يقلُّ عن أربعة خيول، وسط كل ذلك الزحام كيف سأتمكَّن من العثور على محطة القطار؟!

لحظة.. لقد رأيتُ شيئًا يظهر من فوق قمَّة المنازل مثل ريشٍ على قُبَّعة سيدة.

كان هناك عمود بُخاري أبيض يشقُّ السماء الرمادية.. دخان القاطرة البخارية.. تحركتُ تجاهه، وبعدَها بلحظاتٍ سمعت صوت المحرك يصل إلى المنصَّة، وكنتُ قد وصلت في الوقت نفسه.

فقط بضعة ركَّاب ترجَّلوا ولم أجد صعوبة في التعرُّف على الاثنين فارِهَي الطول القادمَين من لندن، بالتأكيد لا بدَّ أنهما أخواي.

كانا يرتديان ملابس ريفية؛ البدلات الداكنة ذات الحواف المضفَّرة، وربطات عنق خفيفة، وقُبعات سوداء مُستديرة، وقفازات خفيفة. فقط النبلاء هم من يرتدون قفازات في ذلك الوقت من الصيف.

واحد من أشقائي كان زائدًا في الوزن، وقد ظهرت تلك الزيادة في وسطه، لا بدَّ أن هذا مايكروفت، الأكبر بسبع سنوات، الآخر «شيرلوك» كان يقِف بشكلٍ مستقيم، وبدا في بذلته التي كانت بلون الفحم، وحذائه الأسود ككلب صَيد.

كانا يلوِّحان بِعَصَوَي المشي الخاصتين بهما، ويتلفَّتان من جانبٍ إلى جانب باحثين عن شيءٍ ما، ولكن كانت نظراتهما تمرُّ من فوقي مباشرة.

وفي الوقت نفسه كان كل من يقِف على المحطة يختلس النظرات إليهما. انزعجتُ من نفسي أني شعرتُ أنَّني أرتجف وأنا أنزل من فوق درَّاجتي، شريط من الدانتيل من بنطالي انشبَكَ في سلسلة الدرَّاجة، ليتمزَّق مُتدلِّيًا فوق حذائي الأيسر، وحين أحاول إصلاحه أُسقِط شالي.

يجب أن أهدأ، آخُذ نفسًا عميقًا، وأترك شالي على الدراجة وأريح الدرَّاجة على حائط المحطة.

أقترِب من الرجُلين دون أن أنجحَ تمامًا في رفع رأسي: آ.. سيد هولمز؟ أسأل..

– آ.. وآاااا سيد هولمز؟

زوجين من العيون الرمادية الحادَّة يصيرون مُثبَّتِين عليَّ، وزوجين من الحواجب الأرستقراطية تصير مرفوعة.

أقول: طلبتَ منِّي أن أقابلكما هنا؟

– إينولا؟

ليقول كلاهما في الوقت نفسه في استعجاب، ثم تغيَّرت لهجتهما في سرعة: ما الذي تفعلينه هنا؟ لماذا لم تُرسلي عربةً لاصطحابنا؟

– كان من المفترَض أن نعرِفها على الفور، فهي تُشبهك حقًّا يا «شيرلوك».

إذن فإني كنتُ مُحقَّة.. إني كنتُ مُحقَّة.. الأكثر طولًا، ذو الجسد الرشيق كان «شيرلوك». أحببتُ وجهه النحيل، وعينَيه الحادَّتَين كالصقر، وأنفه الذي يبدو كمنقار. ولكني شعرتُ أن كون أحدهم يُخبرني أني أشبهه فهي ليست بمُجاملة.

– ظننتُها إحدى الأطفال المشرَّدين.

– طفل مُشرَّد على دراجة؟

– لماذا درَّاجة؟ أين العربة يا «إينولا»؟

رَففتُ بجفنيّ متسائلة: العربة؟

كان هناك عربة من طراز لاندو، وعربة فتون، تجمعان الغبار في المنزل، ولكن لم نكن نملك أيَّ خيولٍ منذ عدة سنوات. ليس منذ أن توقَّفت أمي عن الصيد.

قلتُ ببطء: أعتقد أنه كان من الممكن أن أستأجِر بعض الخيول، ولكني لم أكن لأستطيع أن.. أقودها؟

قال الشحيم مايكروفت مُستعجبًا: ولماذا تفعلين هذا بنفسك؟ فنحن ندفع لفتى الإسطبل، وراعي الخيل.

– أستميحك عذرًا؟

– هل تحاولين إخباري أنه لا توجَد خيول؟

– فيما بعدُ يا مايكروفت.. فيما بعد.. أنت.

بأريحية استدعى شيرلوك حمَّالًا وقال له: احضِر لنا عربة أجرة.

وألقى بعملةٍ للصبي، الذي وضع يدَه على قبَّعته وانطلق لتنفيذ طلب «شيرلوك».

قال مايكروفت: من الأفضل أن ننتظر في الداخل. ففي تلك الريح شعْر «إينولا» يبدو كعشِّ غراب. أين قبَّعتك يا إينولا؟

في تلك اللحظة كان الوقت قد تأخَّر على أن أقول لهما كيف حالُكما أو مِن الرائع رؤيتكما مرةً أخرى يا عزيزيَّ والمصافحة. بالرغم من أنَّني كنتُ عار العائلة. ووقتها أيضًا بدأتُ أستوعب أنَّ «برجاء المقابلة في المحطة» كان طلب توفير وسيلة نقل، وليس طلبًا لتواجدي شخصيًّا.

حسنًا إذا كانا لم يرغبا في الاستمتاع بمُحادثتي فإنَّ ذلك شيء جيد.

وقفتُ صامتةً وغبية.

– وأين قفازاتك؟

أضاف «شيرلوك» وهو يأخُذ بذراعي ويُوجِّهني ناحية المحطة.

– أو أي ملابس مناسبة؟ أنتِ آنسة الآن يا «إينولا».

تلك الملاحظة جذبتْني للمحادثة لأقول: لقد أتممتُ الرابعة عشرة فقط.

قال مايكروفت في لهجةٍ حائرة: ولكنَّني كنتُ أدفع للخيَّاطة!

قاطعه «شيرلوك» قائلًا: كان يجِب عليك أن ترتدي التنانير الطويلة منذ أن أتممتِ الثانية عشرة. ما الذي تفكر فيه أمك؟! يبدو أنها تأثرت كثيرًا بالأفكار النَّسوية.

قلت: أنا لا أعرف أين ذهبت.

وانفجرتُ لدهشتي في البكاء.

لم يأتِ أي ذِكر لأُمي مرةً أخرى حتى جلسنا في المركبة التي استأجرناها، وقد ربطنا الدراجة في مؤخِّرة العربة، وتحرَّكنا في اتجاه «كينفورد».

في وقتٍ ما خلال الرحلة قال «شيرلوك» لمايكروفت: نحن زوج من عديمي التفكير الغاشمين.

وهو يُعطيني محرمةً كبيرة مليئة بالتطريزات حتى أنها آذت أنفي. أنا مُتأكِّدة أنهما يعتقدان أنَّني أبكي من أجل أُمي، ولكني في الحقيقة كنتُ أبكي من أجل نفسي.

«إينولا .. ألون enolA»

«إينولا وحيدة».

جلس أخواي كتفًا بكتفٍ في المقعد المقابل لي. ولكنهما كانا ينظُران إلى أي شيءٍ سواي. كان من الواضح أنهما وجداني مَدعاةً للخجل. توقَّفت عن التشنيف بعد دقائق من ابتعادِنا عن محطة القطار.

ولكني لم أستطع التفكير في أي شيءٍ أقوله. كانت العربة مجرد صندوق ذي عجلات ونوافذ لا يُشجع أبدًا على بدء محادثة، بالرغم من أنَّني وددتُ الإشارة إلى جمال الطبيعة، ولكني لن أفعل بالتأكيد.

- إينولا.

جاء صوت مايكروفت رخيمًا بعد برهة.

- أتشعُرين بتحسُّنٍ كافٍ لتُخبرينا عمَّا حدث؟

كنتُ قد شعرت بتحسُّن بالفعل، ولكن لم يكن هناك الكثير لأضيفه عما يعرفونه بالفعل. أمي تركتِ المنزل في صباح الثلاثاء باكرًا ولم تعُد منذ ذلك الوقت.

لا.. لم تترُك لي أي رسالة لتوضيح الأمر، لا.. لا يوجد سبب يجعلني أفكر أنها كانت مريضة، فقد كانت في صحَّة ممتازة. لا.. لم يأتِ أيُّ خبرٍ من أي شخص، «لا» كانت هي الإجابة على أسئلة شيرلوك كلها. لم يكن آثار دماء، ولا آثار خطوات، ولا آثار اقتحام، ولم أعلم أيَّ شيءٍ عن أي غرباء قد يكونون يتجوَّلون في الأنحاء.

لا.. لم يكن هناك أي مطالبة بفِدية، لو كان لأمي أيُّ أعداء فأنا لا أعرف عنهم شيئًا، ونعم.. قدَّمتُ بلاغًا لمركز شرطة «كينفورد».

- يُمكنني أن أرى.

ألقى شيرلوك بملاحظةٍ وهو ينحني للأمام لينظُر من نافذة العربة ونحن نمرُّ بحديقة «فرنديل»، حيث إنهم مع كل المستفيدين في القرية وكل الباحثين في القرية يبحثون عنها بأقل الطُّرق فاعلية، مُنطلقين بين الأشجار، هل يتوقَّعون أن يجدوها مُختبئة تحت الزعرور.

مال مايكروفت للأمام لينظُر بدوره، ارتفع حاجباه الكثَّان ليصلا إلى حافة قُبعته، وهو يصرخ سائلًا: ما الذي حدث للأراضي؟

مشدوهةً اعترضتُ قائلة: لا شيء.

– بالطبع، لا شيء تمامًا. هذا واضح. يبدو أنه منذ سنوات أيضًا لا شيء يحدُث. كل المزروعات مُفرِطة في النمو!

غمغم شيرلوك: مُثير للاهتمام.

ردَّ مايكروفت بحسم: همجية. فالمزروعات طولها يصل إلى قدم. والشتلات تنبُت والشجيرات الناعمة.

– هذه زهور برية.

كنتُ أحبُّها!

– ينمو على ما يُفترَض أن يكون الباحة الأمامية. كيف بحق السماء نعطي للبستاني أجره.

– بستاني؟ لا يوجد بستاني.

التفت لي مايكروفت كصقرٍ مُنقض: ولكن لديكم بستاني، اسمُه «راجلز». أدفع له ١٢ شيلنًا كل أسبوع منذ عشر سنوات.

جلستُ مشدوهةً فاغرة الفاه لعدة أسباب؛ كيف كان مايكروفت تحت هذا الوهم أنَّنا لدينا بستاني، أنا لا أعرف أيَّ شخصٍ يُدعى «راجلز» والأكثر من ذلك أنا لا أعرف أنَّ هناك أي أموال تأتي من مايكروفت. أعتقد أنَّني كنتُ أفترض أن الأموال مثل الدرج والنجف وباقي الأثاث تأتي مع العزبة.

تدخَّل شيرلوك: مايكروفت، لو كان هناك شخص بهذا الاسم من ضِمن العمَّال فأنا متأكد أن إينولا كانت لا تعرِف به.

- هي لم تعرِف حتى...

قاطعَه شيرلوك مُتحدثا إليَّ: إينولا لا تهتمِّي، مايكروفت يختفي حسُّ دُعابته حين يخرُج من مداره المعتاد ما بين غُرَفِه ومكتبه ونادي الديوجينز.

متجاهلًا إيَّاه انحنى أخوه ناحيتي للأمام مُطالبًا: إينولا أخبريني، هل حقًّا لا توجَد أحصنة؟ ولا راعي إسطبل؟ ولا فتى إسطبل؟

- لا، أعني نعم.. لا يوجد.

- أيهم.. نعم أم لا؟

- مايكروفت.

قاطعَه شيرلوك: رأس تلك الفتاة كما تلاحظ ما يزال صغيرًا مقارنة بجسدها الطويل. فاترُكْها وحدَها لا حاجة لإرباكها وإزعاجها، بينما ستتمكن من اكتشاف كلِّ شيء بنفسك قريبًا.

وفي تلك اللحظة بالذات توقفت العربة أمام عزبة فريندل.

الفصل الرابع

أدخل إلى غرَف أُمي مع أخويَّ، ألاحظ على منضدة الشاي زُهرية يابانية بداخلها ورود، بتَلاتها تحوَّلت إلى اللون البني، لا بدَّ أن أمي قد أحضرت تلك الأزهار قبل اختفائها بيوم أو اثنين.

رفعتُ الزُّهرية واحتضنتُها إلى صدري، مرَّ شيرلوك هولمز بجانبي، كان قد صدَّ ترحيب السيد «لين» ورفض عرض السيدة «لين» لكوبٍ من الشاي. رفض تمامًا أن يقِف للحظةٍ قبل أن يبدأ تحقيقه.

مُتأمِّلًا غرفة الجلوس المليئة برسومات الزهور بألوان الماء، انتقل منها إلى غرفة الاستوديو، ثم إلى غرفة النوم.

هناك سمعتُه يتعجَّب بصوتٍ عالٍ: ما هذا؟

ينادي مايكروفت الذي كان يتحرك ببطءٍ أكثر بعد أن تحدَّث مع السيد «لين» للحظات، ثم ترك له عصاه وقُبَّعته وقفازه.

– شيء مُحزن.

جاء صوت شيرلوك عاليًا من نهاية الغرفة مُشيرًا في الأغلب إلى الفوضى العامة وتناثُر الملابس الداخلية.

– غير لائق.

نعم، بالتأكيد.. ذلك بخصوص الملابس الداخلية.

خارجًا في سرعةٍ من غرفة النوم ظهر في الاستوديو وهو يقول: يبدو أنها غادرت بسرعةٍ كبيرة.

يبدو.. فكرت.

- أو ربما قد أصبحت أقلَّ اهتمامًا في عاداتها الشخصية.

قالها بنبرةٍ أَهدأ. فهي رغم كل شيءٍ في الرابعة والستين من عمرها.

كانت الزهرية التي بين ذراعَيَّ تبعث بشذًى برائحة من المياه الراكدة والجذور المتحللة، بالتأكيد تلك الزهور حين كانت يانعةً كانت تبعث برائحةٍ رائعة.

تلك الأزهار الذابلة التي رأيتها كانت أزهار بسلَّة، وقسوان.

قلت مُستعجبة: قسوان وبسلة.. غريب.

كِلا الرجُلين وجَّها عينيهما ناحيتي بقليلٍ من السُّخط.

- والدتك كانت غريبة! والدتك كانت غريبة.

قال شيرلوك باختصار:

- ولا تزال.

أضاف مايكروفت برفقٍ وهو يوجِّه نظرات عتاب ولوم لأخيه: إذن فهما أيضًا يخافان أن تكون.. ماتت.

باللهجة الحادة نفسها قال شيرلوك: من الوضع الذي أراه هنا فيبدو أنها قد تطوَّرت من الغرابة إلى خرَف الشيخوخة.

بطلٌ أم لا، كانت طريقته بدأت تُزعجني، وتضغط على أعصابي. إنَّ أُمي كانت أمَّهُ أيضًا، كيف يُمكنه أن يكون بهذا البرود؟!

لم أكن أعرف حينها، فلم تكن هناك أي طريقة لأعرف أن شيرلوك هولمز عاش حياته في نوعٍ من الظل البارد، كان يُعاني من الاكتئاب، وكانت أعراضه تزداد في بعض الأحيان بشكلٍ كبير لأسبوعٍ أو أكثر حتى أنه يرفض الخروج من فراشه.

- الخرَف؟

يتساءل مايكروفت.

- ألم تستطع الوصول إلى استنتاجٍ أكثر فائدة؟

- مثل ماذا؟

- أنت المحقِّق.. فلتُخرج عدساتك، وتُحقِّق.

- لقد فعلت. لا يوجد شيء يمكن أن يُفيدنا هنا.

- في الخارج إذن.

- بعد يومٍ كامل من الأمطار؟ لن يكون هناك أي دلائل تُخبرنا بأي طريقٍ ذهبت.. امرأة حمقاء.

خرجتُ وقد هالتْني نبرتُه وتعليقه وأنا أحمل الزُّهرية بداخلها الزهور الذابلة للأسفل إلى المطبخ.

هناك وجدتُ السيدة «لين» مُنكفئة على الأرض وفي يدِها فُرشة تنظيف تفرك ألواح البلوط الخشبية بعنف شديد حتى اعتقدتُ أنها قد فقدت عقلها.

أفرغتُ محتويات المزهريَّة اليابانية في دلوٍ خشبي مائل موضوع على منصة تقشير الخضراوات.

وهي ما تزال على يدَيها ورُكبتيها تحدَّثَت السيدة «لين» للأرضية قائلة: وأنا التي كنتُ أنتظر لأرى السيد مايكروفت والسيد شيرلوك مرةً أخرى.

وضعتُ المزهرية الخضراء في الحوض الخشبي المبطَّن بالرصاص وأجريتُ المياه عليه من الصنبور، والسيدة لين تُكمل حديثها للأرضية: وككل مرةٍ نفس الخلافات الحمقاء، ولا يوجد لديهما أي كلماتٍ طيبة لأُمِّهما، بينما هي ربما ترقُد في مكان ما...

تحشرَج صوتها فجأة، وأنا لم أقُل شيئًا.

فلم أرغب بإزعاجها أكثر من ذلك.

ما بين كحْتِ الأرضية والتشنيف أعلنتِ السيدة «لين»: من غير المستغرَب أنهما ما يزالان أعزبَين. يجب أن يتمَّ كل شيءٍ على طريقتهما، مُعتقدَين أنَّ ذلك حقُّهما. لا يمكنهما أبدًا أن يفهما أو يسمعا لامرأةٍ ذاتِ فكرٍ مُستقل.

دقَّ الجرس، واحد من عددٍ من الأجراس المعلقة على سلك نحاسي مُمتد فوق الموقد.

– ذلك جرس الغرفة الصباحية، أفترض أنهم يريدون الغداء، وأنا غارقة في القذارة حتى منكبيَّ ها هنا.

كَوني لم أتناول أي إفطار، كنتُ أريد غداءً أنا الأخرى، وأيضًا أردتُ معرفة ما الذي يحدُث. تركتُ المطبخ واتَّجهتُ نحو غرفة الصباح.

في الغرفة على طاولةٍ صغيرة غير رسمية جلس شيرلوك يُدخن الغليون ويحدِّق إلى مايكروفت الذي جلس قُبالته.

كان مايكروفت يقول: أعظم عقلَين في إنجلترا وجب عليهما أن يصلا إلى إجابة الآن، هل رحلتْ أمُّنا بإرادتها، أم كانت تنوي العودة؟ وحالة الفوضى التي عليها غرفتها...

قاطعَه شيرلوك: يعني أنها خرجتْ دون تخطيطٍ وبسرعة، أو قد يعني انعكاسًا للفوضى التي بداخل عقل تلك المرأة. وما فائدة المنطق ونحن نتعامل مع امرأةٍ في الأغلب خرِفة.

كلاهما وجَّها أنظارهما ناحيتي حين دخلتُ الغرفة آمِلَين أن أكون الخادمة برغم أنه كان يجِب عليهما الآن معرفة أنه لا يوجد خدَم.

– الغداء؟

تساءل مايكروفت.

أجبتُ وأنا أجلس على الطاولة معهما: الله أعلم.. السيدة «لين» في حالةٍ عقلية غير مُستقرَّة.

- بالتأكيد.

تأمَّلتُ أخويَّ العبقريَّين، كانا فارِعَي الطول، ووَسيمَين (على الأقل بالنسبة لي)، وأكننتُ لهما الاحترام، أردتُ أن أُحبَّهما. أردتهما أن...

- كلام فارغ يا «إينولا»، ستُبلين حسنًا وحدكِ.

لم يُولِي أخواي لي أيَّ اهتمامٍ مُكمِلَين حديثهما.

قال مايكروفت لـ«شيرلوك»: أؤكد لك أنَّ أمَّنا ليست خرِفة، ولم تفقد عقلها، لا توجد امرأة خرِفة يمكنها إدارة الحسابات التي تُرسِلها إليَّ في العشرة الأعوام الأخيرة، واضحة دائمًا ومنظمة، مُفصَّلةً مصاريف تركيب الحمام...

يقاطعه شيرلوك في لهجةٍ حادة: وهو غير موجود؟

- وغرفة الاستحمام؟

- نفس الشيء.

- ومُرتَّبات الخدَم والطهاة، والمساعدين بزياداتهم السنوية؟

- لا وجود لهم.

- البُستاني ومساعد البستاني، والذين يقومون بالأعمال المتفرِّقة؟

- أيضًا لا وجود لهم، باستثناء «ديك»، والذي عقلُه مُتفرِّق حقًّا.

قالها مايكروفت موافقًا كنكتة، ولكني لم أرَ حتى شبَح ابتسامة على وجه أيٍّ منهما.

- أنا مُتفاجئ أنها لم تضع «رينالد كولي» على تلك القائمة، بالرغم أنه يُعتبر خادمًا، لقد وضعت أحصنة، مُهورًا خياليِّين، ووضعتْ عربات خَيل خيالية، وسائقين لتلك العربات، وعامِلين في الإسطبل لا وجود له!

- لا مجال للشك أنَّنا خُدعنا بشكلٍ جيد.

- وبالنسبة لإينولا فمُدرِّس الموسيقى ومُدرِّب الرقص والمربية...

نظرة قلقة تنقَّلت بين عينَيهما وكأنَّ مُعضلة فكرية فجأةً صار لها وجه ونما لها شعر، ليلتفِتَ كلاهما في اللحظة نفسها ليُحدِّقا إليَّ.

- إينولا!

سأل شيرلوك: كان لديك مُربية على الأقل؟

- لم يكن لديَّ.

فأُمي تُرسلني إلى المدرسة مع أبناء القرية، وبعد أن تعلَّمتُ كل ما يمكن أن أتعلمه هناك أخبرتْني أنَّني سأُبلي حسنًا وحدي، وقد اعتبرتُ نفسي أنَّني أبليتُ حسنًا. فقد قرأتُ كلَّ كتابٍ في مكتبة عزبة «فرنديل» بداية من «حديقة آية الطفل» إلى الموسوعة البريطانية، بينما تردَّدت...

وجه ماكيروفت السؤال لي مرة أخرى: لقد حصلتِ على تعليمٍ مناسب أيتها الآنسة الصغيرة. أليس كذلك؟

أجبتُ: لقد قرأتُ شكسبير، وأرسطو، ولوك، وروايات ثاكري، ومقالات ماري والستون كرافت.

تجمَّد وجهاهما. لقد أرعبتُهما بما يكفي، ولم أكن لأستطيع أن أرعبهما أكثر من ذلك لو قلتُ لهما إني تعلَّمتُ أن أؤدِّي حركاتٍ بهلوانية على أرجوحة السيرك.

أدار شيرلوك رأسه لمايكروفت وقال بهدوء: إنه خطئي، لا يجِب الثقة في امرأةٍ أبدًا. لماذا نجعل من أُمِّنا الاستثناء؟ كان يجِب عليَّ أن آتي هنا على الأقل مرةً كل عام مهما كان الأمر مُثيرًا لحفيظتي.

قال مايكروفت بنفس الطبقة الهادئة الحزينة: على العكس يا عزيزي شيرلوك، لقد كانت تلك مسئوليتي، فأنا الابن الأكبر...

قاطعَهُما سُعال خفيف صدر من السيدة «لين» وهي قادمة بصينية شطائر الخيار، والفاكهة المقطعة، وجرَّة من عصير الليمون، وأصبح هناك صمتٌ محمودٌ لوهلةٍ حتى قُدِّم الغداء، وخلال ذلك الصمت تكوَّن سؤالي الذي سألته بعد أن خرجت السيدة «لين»: ما علاقة كل هذا بإيجاد أمي؟

بدلًا من إجابتي وجَّه مايكروفت كامل اهتمامه لطبقِه.

طرق شيرلوك بأصابعه على المنضدة وقال: نحن نُكوِّن نظرية.

– وما هي تلك النظرية؟

فأسألهما ثانية: هل ستعود أُمِّي لي مرةً أخرى أم لا؟

لم ينظر لي أيٌّ منهما، ولكن بعد فترةٍ بدت طويلة جدًّا اختلس شيرلوك النظر لأخيه وقال: مايكروفت، أعتقد أن مِن حقِّها أن تعرف.

أطلق مايكروفت زفيرًا وهزَّ رأسه وترك ما تبقَّى من شطيرته الثالثة واعتدل ليواجهني: نحن نُحاول أن نُقرِّر إذا كان ما يحدُث الآن له علاقة بما حدَث حينما... تُوفِّي أبونا، لا أعتقد أنك تتذكَّرين.

قلت: لقد كنتُ أبلغ من العمر أربع سنوات، أتذكَّر أحصنة سوداء.

– بالطبع. حسنًا، بعد الدفنة وخلال الأيام التي تلتْ كان هناك خلاف...

قاطعَه شيرلوك: ذلك وصْفٌ بسيط لما حدَث. معركة بقاء ربما كانت وصفًا أقرب.

متجاهلًا إيَّاه أكمل مايكروفت: اختلاف على إدارة الأملاك لم يُرِد شيرلوك ولا أنا العيش هنا، فكان رأي أُمِّي أنَّ أموال الإيجار الخاصة بالأملاك من المفترَض أن تذهب إليها كاملة وأن تدير هي مزرعة فرنديل.

ولكن قد أدارتها بالفعل! لماذا يتحدَّث مايكروفت وكأنها فكرة غير مُحتمَلة؟!

يكمل مايكروفت: وحيث إنني الابن الأكبر فإنَّ الأملاك كانت لي. أُمِّي لم تعترِض على ذلك، ولكن لم تفهم لِمَ لا يمكنها أن تدير هي الأملاك لي، بدلًا من العكس. وحين ذكَّرتها أنا وشيرلوك أنه من الناحية القانونية فهي لا يحقُّ لها حتى العيش هنا إلا لو سمحتُ لها أنا، صارت غير عقلانية، وقالت إنَّنا غير مُرحَّب بنا هنا في مكان مولدنا.

يا إلهي، كل شيء بدا وكأنه ينقلِب في رأسي، وكأني مُعلقة على جذع شجرة من قدمي. عشتُ حياتي مفترضةً أن أخويَّ عاشا بعيدًا عنها لأنهما

يشعران بالعار من وجودي، والآن وحسب ما يَحكِيانه لي فإنَّ مشاكلهما كانت مع أمي.

لم يكن بإمكاني معرفة شعور مايكروفت أو شيرلوك تجاه ما يخبراني به الآن. لم يكن بإمكاني أن أعرف شعوري أنا شخصيًّا تجاه الأمر، غير أنني مذهولة ولكن كنتُ أشعر وكأنَّ هناك فراشات تُرفرِف في قلبي.

أكمل مايكروفت: كنتُ أبعث إليها بالشهرية، وكانت ترسِل إليَّ رسائل رسمية مُطالبة بزياداتٍ لأردَّ مُطالبًا بدوري بكشف حسابٍ لكيفية إنفاق تلك النقود، وكانت تفعل ذلك. دائمًا كانت طلباتها للزيادة منطقية، فلم أرفض أيًّا منها. ولكن كما نرى الآن فإنَّ كل تلك الدفاتر والحسابات خيالية، ما الذي فعلَتْهُ بكل تلك الأموال، فنحن..آآ.. لا نملك أدنى فكرة.

لاحظتُ تردُّده فقلت: ولكن لديكما نظرية.

- نعم.

أخذ نفسًا طويلًا قبل أن يكمل: نعتقد أنها كانت تدَّخر تلك الأموال، بينما تخطط لهذا العمل الطائش.

نفس عميق آخر، أكثر عُمقًا من الأول: نعتقد أنها أخذت ما تعتبره أموالها واا.. ذهبت إلى مكان ما لـ... لتعاقبنا نوعًا ما.

ما الذي يقوله؟ إنَّ أُمي هجرتْني؟

جلستُ فاغرةً فاهي.

- فلتُشفِق على قدرة الفتاة على الاستيعاب يا مايكروفت.

غمغم شيرلوك لأخيه، ثم نظر لي وقال برفق: إينولا، ببساطة نعتقد أنها هربَت.

ولكن هذا كان.. كان غير ممكن.. مستحيل.. ما كانت لتفعل ذلك بي.

- لا.

نطقتُ أخيرًا...

- هذا لا يمكن.

- فكري يا «إينولا».

قالها شيرلوك مُتحدثًا مثل أُمي.

- كل الدلائل المنطقية تُشير إلى تلك النتيجة. لو كانت مُصابةً في مكانٍ ما لكانت فرقة البحث قد وجدتها، ولو أُصيبت في حادثٍ كنا سنسمع به. لا يوجَد أي سبب لأي شخصٍ أن يؤذيها، ولا توجَد أي إشارة لجريمة، لا يوجَد سبب لأي أحدٍ أن يأخُذَها ضدَّ إرادتها، غير المطالَبة بفِدية، وهو ما لم يحدُث.

توقَّف شيرلوك لفترةٍ طويلة قبل أن يُكمل: ولكن في حالة أنها على قيد الحياة وبصحة جيدة وتفعل ما تشاء.

يضيف مايكروفت: كالعادة.

يكمل شيرلوك: فغُرفتها غير المنظمة ربما مجرَّد ستار.

يقول مايكروفت مُتفقًا: لتشتيتنا. لأنه على ما يبدو أنها كانت تُخطط لذلك منذ عدة سنوات.

وقفتُ كصفَّارة بخارية. كان بإمكانها فعل ذلك في أي وقت.

قلتُ ناحبة: لِمَ تفعل ذلك في عيد ميلادي؟

كان ذلك دورهما في الجلوس بفاهين فاغرين، وقد أفحمْتُهُما ولكن في تلك اللحظة التي شعرتُ فيها بالنصر، تسلَّلت القشعريرة إلى جسدي وأنا أتذكَّر، لقد طلبَتْ أُمي من السيدة «لين» أن تُعطِيني هدايا عيد ميلادي في حالة عدَم عودتها في وقت الشاي، أو عدم عودتها أبدًا.

الفصل الخامس

ولأن عينيَّ قد احترقتا من كثرة الدموع أخشى أنِّي اعتذرتُ عن إكمال الغداء على عجل.

احتجتُ إلى أن أكون في الخارج، النسيم سيُبرِّد مشاعري الملتهبة، لا أقِف سوى لألتقط عدة الرسم التي أعطتْني أُمي إيَّاها، أخرج راكضةً من باب المطبخ، أعبر حديقة الخضراوات مارَّةً بالإسطبلات الخالية، وأعبر الحديقة غير المعتنى بها، لأصل للجزء المليء بالأشجار من العزبة، وبعدَها وقد ضاقت أنفاسي أتمشَّى تحت أشجار البلوط، شاعرةً ببعض التحسُّن.

أشعُر كأني وحيدة في الغابة، أفراد الشرطة وفرقة البحث مرُّوا من هنا بالفعل، ووصلوا إلى حقولٍ بعيدة الآن.

امتدَّت منطقة الأشجار للأسفل، وفي أسفل ذلك الجزء المنحدِر وصلتُ إلى مكاني المفضَّل.

ذلك الوادي الصخري المغطَّى بالسراخس الخضراء، كثَوب مساءٍ مخملي يُغطي الأحجار.

أتتبَّع المجرى المكوَّن من الحصى، الذي شكَّل بركة تحت صفصافة مائلة. لا أفكر في الفستان الذي أرتديه، أتسلَّق الصخور المغطاة بالسراخس حتى أصل

إلى الصفصافة، أتعلَّق بجذعها القوي مُحتضِنةً إيَّاه، واضعةً خدِّي على لحائها ليلامس خدي اللحاء المغطَّى بالطحالب الخضراء، ثم انحنيتُ تحتها لأزحف في التجويف المظلَّل بين الشجرة المتدلية والجدول.

هذا الخنُّ الجميل كان ملاذًا سِرِّيًّا لي، لا يعرف أحدٌ مكانه سواي.

احتفظتُ هنا بالأشياء التي أُحبها، أشياء كانت السيدة «لين» ستتخلَّص منها لو أحضرتُها إلى المنزل. ما إن اعتادت عيناي على الظلام، نظرتُ حولي للرفوف الحجرية التي بَنيتُها.

كان هناك أصداف الحلزون، والكثير من الحصى الملوَّن، رءوس جوزة البلُّوط، بعض من الريش الملوَّن، زرار كُم، سلسلة مكسورة، وكنوز أخرى وجدتُها في أعشاش العقعق.

بزفرة ارتياحٍ ضممتُ رُكبتيَّ لتُلامِسا ذقني بطريقةٍ غير أُنثوية تمامًا. ولففتُ ذراعيَّ حول ساقيَّ وحدَّقتُ إلى المياه التي تتدفَّق خلف قدميَّ.

أسماك السلمون المرقَّط الصغيرة كانت تسبح في المياه، أشاهدهم وهم ينطلقون في مجموعة، ثم يُبدِّلون اتجاههم، ويعودون لتكوين التشكيل نفسه مرةً أخرى.

في العادة كانت مُراقبتهم في انطلاقاتهم وتشكيلاتهم تفتنُني، وتجعلني في حالةٍ من الانبهار.

ولكن ليس اليوم، كل ما أستطيع التفكير فيه هو ما الذي ألمَّ بأمي؟ كيف سأتمكن من أن أعود إلى المنزل في النهاية دون أن تكون هناك في انتظاري.

عوضًا عنها سيكون هناك أخواي، وحين أدخل مُغطَّاة بالطين والأتربة سيقولون...

اللعنة على أخويَّ.

أفرد ركبتيَّ، وأفتح عدة الرسم الجديدة، ألتقط قلمًا رصاصيًّا في يدي، وبعضًا من الأوراق.

على واحدةٍ من الأوراق أرسم رسمة سريعة، ليست رسمة جيدة لمايكروفت بنظارته الأحادية، وحذائه الأنيق، وساعة جيبه الثقيلة، التي تمتدُّ سلسلتها حول سُترته، ثم أرسم رسمةً سريعة أخرى مُشابهة لشيرلوك، بساقيه النحيفتَين وأنفه وذقنه. بعدها أردتُ أن أرسم أُمي، حيث إني كنت غاضبةً منها، أردت رسمها كما كانت، في اليوم الذي رحلت فيه. بقُبعتها التي تُشبه زهرية مقلوبة، وسترتها الطويلة ذات المؤخِّرة الكبيرة مثل مؤخرة الديك الرومي.

كانت في منتهى السُّخف...

ولم تأخُذ أدوات رسمها معها، ولم تكن تتوقَّع أن تعود في موعد احتفالي بعيد ميلادي.

كانت تُخطط لشيءٍ ما، بالرغم من أن ذلك يؤلمني الاعتراف به، ولكنها كانت تُخطط لشيءٍ ما.

في كل ذلك الوقت الذي كنتُ أبحث عنها بفزَع كانت بخير وحدَها، تستمتِع بمغامرةٍ ما بدوني.

يُفترض أن أشعر بالسعادة بتوصُّلنا لكونها حيَّة، ولكن على العكس؛ شعرتُ بالبؤس، لقد تخلَّت عنِّي.

لماذا لم تَرفُضني منذ البداية؟

لماذا لم تضعني في سلةٍ ما وتتركني على عتبةٍ ما حين وُلِدت؟

لماذا تركتْني الآن؟

وأين ذهبت؟

بدلًا من الرسم جلستُ مُفكرة، واضعةً رسوماتي جانبًا، وكتبت قائمة من الأسئلة:

لماذا لم تأخذني أمي معها؟

لو كانت ستتنقل إلى مسافه.. طويله.. ، لماذا لم تستخدِم الدراجه.. ؟

لماذا ارتدتْ تلك الملابس الغريبه.. ؟

لماذا لم تستخدِم البوابه.. ؟

لو كانت ارتحلَتْ عبر البلاد سيرًا على الاقدام فإلى أين كانت ذاهبه.. ؟

بفرض أنها وجدت وسيله.. مواصلات.. مره.. أخرى إلى أين كانت ذاهبه.. ؟

ما الذي فعلتْهُ بكل هذه الاموال؟

إذا كانت تهرُب، لماذا لم تحمل أيًّا من متاعها؟

لماذا تهرُب يوم عيد ميلادي؟

لماذا تركتني دون وداعٍ أو تفسير؟

تركتُ قلَمي الرصاصيَّ، وحدَّقتُ إلى الجدول. الأسماك الصغيرة ما زالت تتحرك كدموعٍ سوداء.

شيءٌ ما تحرك تحت الصفصافة المائلة، حين استدرتُ لأنظر وجدتُ رأسًا مألوفًا ينبش.

قلتُ ساخطة: رينولد، اترُكني وحدي.

ولكني انحنيتُ تجاه الكلب العجوز، انطلق بأنفه ووجهه يتشمَّم وجهي ويهزُّ ذيله وأنا أُحيط رقبتَه بذراعي.

- شكرًا رينولد.

جاء صوت مُتحضِّر، ووجدتُ أخي شيرلوك يقِف فوقي.

لاهثةً دفعت برينولد بعيدًا ومددتُ يدي لأجذب الأوراق التي تركتُها على الأرض، ولكن لم أكن بالسرعة الكافية؛ فشيرلوك التقطَها أولًا.

حدَّق في رسوماتي لمايكروفت وله، ثُم ألقى برأسه ضاحكًا ضحكةً خافتة ولكنها حقيقية اهتزَّ لها جسده كثيرًا حتى جلس على صخرةٍ بجانب الصفصافة مُلتقطًا أنفاسه.

شعرتُ أني أحترق من الخجل، ولكنه كان يبتسِم ليقول لي ما بين ضحكاته: أحسنتِ يا إينولا، لدَيك موهبة فطرية في رسم الكاريكاتير.

أعطاني الرسومات، وهو يقول: ولكن من الأفضل ألَّا يراها مايكروفت.

أبقيتُ نظراتي ووجهي الملتهب من حُمرة الخجل نحو الأرض وأنا أضع الرسومات مع عدة الرسم.

قال أخي: يومًا ما تلك الشجرة ستسقُط تمامًا في الماء. ونتمنَّى ألَّا تكوني تحتها حين يحدُث ذلك.

على الأقل هو لم يكن يسخَر من ملاذي، ولكني شعرتُ بلومٍ بسيط ورغبة منه أن أخرج.

عابسةً خرجت.

سألني: ما تلك الورقة التي تحملينها في يدك؟ هل يُمكنني رؤيتها؟

قائمتي.. أعطيتُه إيَّاها وأنا أُخبر نفسي لا أهتمُّ بما يظنُّه فيَّ بعد الآن.

جلستُ مُلقيةً بجسدي على صخرة أخرى مُغطاة بالسراخس بينما هو يقرأ.

كان يقرأ قائمتي بتركيز حقًّا متفكرًا، وظهر على وجهه ذي الأنف البارز علامات الجدية.

– لقد غطَّيتُ كل النقاط البارزة.

قال في النهاية، وقد اختلطت لهجته بقليلٍ من الدهشة.

– أعتقد أنَّنا يمكننا أن نتخيَّل أنها لم تستخدِم البوابة لأنها لم تُرِدْ أن يراها الحارس، ويعرف أيَّ اتجاهٍ رحلت فيه، ولنفس السبب فهي لم تُرِد أن تستخدِم الطُّرق حيث من الممكن أن تقابل أشخاصًا يصيرون شهودًا فيما بعد. لقد كانت ذكيةً بما يكفي لتتركنا بلا أدنى فكرة إن كانت ارتحلت شمالًا، جنوبًا، شرقًا، أم غربًا.

هززتُ رأسي، واعتدلتُ في جلستي وأنا أشعر أنني أفضل؛ فأخي شيرلوك لم يسخر من أفكاري، كان يتحدَّث معي.. تلك الفراشات التي شعرتُ بها في قلبي بدأتُ أفهم سببها، لقد بدأتُ حين عرفتُ أنَّ خلافَ أخويَّ كان مع أمي وليس معي. لقد كان أملًا.. حُلمًا.. تطلُّعًا حقًا، والآن هناك فرصة.

أردتُ أخويَّ أن... لم أجرؤ حتى على التفكير في المصطلح الذي أستطيع أن أصِف به، ربما أردتُ منهما فقط بعض الاهتمام بشكلٍ ما.

كان شيرلوك يقول: وبالنسبة للنقاط الأخرى فأرجو أن يتَّضِح قريبًا.

هززتُ رأسي مرة أخرى.

– سؤال واحد لم أستوعِبه. حصلتُ من «لين» على وصفٍ لملابس أُمِّنا، لم أفهم لِمَ تَصفينَه بالغريب؟

احمرَّت وجنتاي حين تذكَّرتُ سؤالي للسيد «لين» عن حشو الأرداف.

كل ما استطعتُ فعله هو أن أُغمغم: آاا الـ.. المحسِّن.. الثوب.

– آه، حشو الأرداف.

كان من السهل عليه أن يقولها بلا حرَج.

- سأل يومًا ما آكِلُ لحوم البشر زوجة المبشِّر: هل كل نسائكم مُشوَّهات هكذا؟ حسنًا، لا يمكن أن نعدَّ ونُحصي الطرُق التي تُجمِّل بها النساء أنفسهن، نزوات الجنس اللطيف لا تخضع لمنطق.

قالها هازًّا كتفيه دون أن يُبدي اهتمامًا بالموضوع.

- إينولا، سوف أعود إلى لندن من فوري، لذا فكنتُ أبحث عنكِ لأودِّعك، وأُخبرك كم كان مُبهجًا أن أراك بعد كل تلك السنوات.

مدَّ يدَه المغطَّاة بالقفاز وتمسَّكتُ بها للحظة، لم أستطع أن أتحدَّث.

أكمل شيرلوك:

- مايكروفت سوف يظلُّ هنا لعدة أيام، بالرغم من صعوبة بقائه بعيدًا عن نادي ديوجينز المحبَّب.

بعد أن ابتلعتُ ريقي لأستعيد صوتي سألت: ما الذي سوف تفعله في لندن؟

- سأقدِّم طلبًا في «سكوتلاند يارد» للبحث في قوائم المسافرين على البواخر باحثًا عن سيدةٍ تسافر وحيدة؛ في حالة أنَّ نظريَّتَنا صحيحة فأمُّنا تركت لندن لتذهب إلى جنوب فرنسا قبلةَ الفنَّانين، أو لعلَّها تحجُّ إلى مقام النَّسويات المتحرِّرات.

ثم نظر إلى عينيَّ متسائلًا: إينولا، أنت قضيتِ معها وقتًا أكثر منَّا مؤخَّرًا، أين تعتقدين أنها ذهبت؟

شيرلوك هولمز العظيم يسألني عمَّا أعتقِده، ولكنِّي لم أملك أيَّ اعتقاداتٍ أو نظريات، فأنا بالرغم من كل شيء فتاة بِجُمجُمةٍ صغيرة.

أشعر بحُمرة الخجل مرةً أخرى تحرق وجنتيَّ، هززتُ رأسي يمينًا ويسارًا.

– حسنًا، الشرطة أبلغتنا أنها لا أثرَ لها، إذن فأنا راحل.

قام واقفًا، لامسًا حافة قُبعته مُحيِّيًا إيَّاي، ثم قال: اطمئنِّي، لا يوجَد أي دليل على أن أيَّ أذًى قد لحِق بها.

ثم مُؤرجِحًا عصاه مشى في الوادي بين الصخور في سهولةٍ ووقار وكأنه ينزل على سلالم رخامية من قصرٍ في لندن، وحين وصل إلى نهاية الوادي دون أن يلتفِتَ رفع عصاه هازًّا إيَّاها كنوعٍ من أنواع الوداع، ثم أكمل طريقه للمنزل والكلب يتبعه.

راقبتُه حتى اختفى بين الأشجار، عالمةً أنه دون أن يكون ذلك ذنبه ولكنِّي لن أتواصل معه لفترةٍ طويلة.

حين عدتُ إلى المنزل بحثت عمَّا أطلق عليه السيد «لين» مُحسِّن الثوب، وجدته حيث تركتُه في القاعة الأمامية، وهو مكان غير مناسب على الإطلاق لشيءٍ مثل ذلك.

تساءلتُ لِمَ ارتدت أُمِّي الفستان الواسع ذا الظهر العريض دون أن تضع اللبادة أو حشو الأرداف.

مُتفكرةً ظللتُ أمشي حتى صعدتُ لغرفتها لأُعيد حشو الأرداف لغرفة نومها حيث وجدته، في حالة إن احتاجتْهُ مرة أخرى حين...

تعود؟

لم يكن هناك سبب يجعلني أفكر أنها سوف تعود أبدًا، فهي اختارت أن ترحل بإرادتها الشخصية.

أغوص في المقعد الخشبي الموضوع في الطُّرقة ممسكةً بحشو الأرداف الذي كان مصنوعًا من الخيش وقد أمَلْتُ رأسي على صدري.

بقيتُ على هذا الوضع لفترةٍ طويلة، وأخيرًا رفعتُ رأسي، الذي امتلأ بأفكارٍ انتقامية.

لو أُمي تركتْني إذن فمن حقِّي أن أعبثَ وآخُذ ما أريدُه من الأشياء التي تركتْها في غرفتها.

كان ذلك قرارًا أخذتُه؛ جزءٌ منه تشفٍّ، والجزء الآخر ضرورة؛ فقد دُمّرت عباءتي وأحتاج لتغييرها؛ فالعباءات الأخرى القليلة التي أملكها تبدو في حالةٍ أسوأ من العباءة البيضاء التي أرتديها الآن المزيَّنة بالبُقَع الصفراء والخضراء جرَّاء تلوُّثها بالأتربة والحشائش.

إذن فسوف أختار شيئًا من خزانات ملابس أُمي. أقف وأتحرك في سرعة، اتَّجَهت للأعلى إلى باب أُمي وأدرتُ المقبض، ولكن دون فائدة. الباب كان مسكرًا.

لا بدَّ أنَّ اليوم هو أكثر الأيام إزعاجًا على الإطلاق.

مُستندةً على «درابزين» السلالم مددتُ رأسي وسمحتُ لصوتي أن يكون مُزعجًا وعاليًا وأنا أقول: «لين».

– هشششش.

ويا للعجَب حيث إنه كان من الممكن أن يكون في أيِّ مكان، من العُلِّية إلى القبو فقد ظهر الخادم تحتي مباشرةً في لحظاتٍ وأصبعه المغطَّاة بالقفاز الأبيض على شفتيَه وهو يقول: آنسة «إينولا» سيد «مايكروفت» يأخذ قيلولةً الآن.

مُتبرِّمة أشرتُ إلى السيد «لين» أن يصعد السلالم، وحين قام بذلك قلتُ له بصوتٍ هادئ: أحتاج إلى مفتاح غُرَف أُمي.

السيد «مايكروفت» أعطى أوامره أن تبقى تلك الغرف مُسكرة.

غلبَتِ الدهشة ضِيقي، وأنا أسأل: لماذا؟

– لستُ في مجال يسمح لي بالسؤال عن ذلك يا آنسة «إينولا».

– حسنًا، لا أحتاج إلى المفتاح، فقط افتح لِيَ الباب إذن.

– عليَّ أن آخُذ إذْن السيد مايكروفت يا آنسة إينولا، وسينزعِج إذا أيقظتُه الآن، فالسيد مايكروفت قد أعطى أوامر بـ...

السيد مايكروفت هذا.. السيد مايكروفت ذلك.. السيد مايكروفت يُمكنه أن يذهب ليغطس رأسه في برميلٍ من الأمطار.

أدفَع بمُحسِّن الثوب في صدر سيد «لين» قائلة: أحتاج إلى أن أضع ذلك في مكانه.

احمرَّت وجنتا الخادم وهو ما أذهلَني، حيث إنَّني لم أره يخجَل من قبل.

قلتُ بصوتٍ أكثر هدوءًا من بين أسناني: وأيضًا أريد أن أبحث في خزانة أمي عن شيء أرتديه، فلو نزلتُ للعشاء بعباءتي في حالتها الحالية، أعتقد أنَّ السيد مايكروفت سيكون مُستاءً أكثر، افتح لي الباب.

دون كلمةٍ أخرى فتح السيد «لين» الباب، ولكنه احتفظ بالمفتاح وظلَّ واقفًا بجانب الباب في انتظاري، ولذا وقد ملأني العناد، فقد قررتُ أن آخُذ وقتي تمامًا، ولكن وأنا أبحث بين ملابس أمي فكرتُ في ذلك التطوُّر الجديد؛ تسكير غُرَف أمي والدخول لها بإذن من مايكروفت ذاك غير مقبول. تساءلتُ إذا كانت أمي قد تركتْ مفتاحها الخاص؛ الفكرة أخافتْني.

فلو كانت فعلتْ ذلك، فهذا سيعني أنها بالفعل لم تنوِ العودة، ففي العادة حين تخرج بالنهار فسوف تأخُذ مفتاح غُرَفها معها، احتجتُ عدة أنفاسٍ عميقة قبل أن أمدَّ يدي في رداء الخروج خاصَّتها، والذي كان ما يزال مُعلقًا على الشماعة بجانب المرآة، ووجدتُ المفتاح على الفور في الجيب.

شعرتُ به ثقيلًا في يدي، وظللتُ أنظر إليه وكأني لم أرَه من قبل. المِقبض البيضاوي في نهايته، والمستطيل المسنَّن في الطرف الآخر، يا له من شيءٍ غريب مصنوع من حديدٍ بارد.

إذن فهي حقًّا لم تكن تنوي العودة.

أصبح ذلك الهيكل المعدني في يدي أغلى ما أملك. أضمُّ قبضتي عليه، تناولتُ فستانًا من دولاب أمي ووضعتُه فوق يدي لأُخفي المفتاح وخرجتُ مرة أخرى.

- حسنًا يا «لين».

قلتُها بدون إبداء أي مشاعر. وسكر الباب بعدها.

في وقت العشاء كان مايكروفت من الذوق ألا ينبثَ بكلمةٍ عن الفستان الذي استعرتُه.

فقد كان واسعًا، مُتطايرًا، تبدو فيه رقبتي كعصا مقشَّة، وبالرغم من أنَّ طولي كان يُماثل طول أمي، إلَّا أنني افتقرتُ إلى تفاصيل جسدها الأنثوية.

على أي حالٍ فإني قد اخترتُ ذلك الفستان للونه الأشبه بالخوخ، مع لمسةٍ من الكريمة، الذي أحببتُه كثيرًا، ولم أختره لأنه يُلائمني.

كان الفستان قد أخفى حذاء الفتيات الصغيرات الذي أرتديه، وكنتُ ربطتُ وشاحًا على وسط الفستان ليظهر ما يُماثل وسطًا لي.

ارتديتُ قلادة وحاولتُ حتى أن أسرِّح شعري، ولكن للأسف لونه البُني، وكونه أشعثَ لم يكن بالضبط تاجًا لجمالي.

بشكلٍ عام أنا متأكدة أني بَدوتُ كطفلةٍ تلعب تُحاول تمثيل أنها من الكبار.

بالرغم من أنَّ مايكروفت لم يقُل أيَّ شيء. إلا أنه كان من الواضح أنه لم يكن مسرورًا.

مجرد أن وضعت الأسماك على المائدة قال لي: لقد راسلت الخياطة في لندن لتزويدك بملابس مناسبة.

هززتُ رأسي، سيكون من اللطيف الحصول على ملابس جديدة.

وإذا لم يُعجبوني فيُمكنني بسهولةٍ العودة إلى بنطلوناتي القصيرة التي أرتاح بها بمجرَّد أن يُدير رأسه، ولكنِّي قلت: هناك خيَّاطة هنا في كينفورد.

– نعم أنا أعلم ذلك، ولكن الخيَّاطة في لندن تعرف تمامًا ما الذي تحتاجين إلى ارتدائه في مدرسةٍ داخلية.

ما الذي يتحدَّث عنه؟

بصبرٍ شديد قلت: أنا لن أذهب إلى مدرسةٍ داخلية.

بصبرٍ مُماثل أجابني: بالتأكيد سوف تفعلين يا إينولا، لقد تواصلتُ مع عدة مؤسَّسات ممتازة للشابَّات.

أخبرتْني أمي عن مؤسَّسات مثل تلك، كانت منشورات «راشونال دريس» مليئةً بتحذيراتٍ من تلك المؤسَّسات ومن الصوَر المغلوطة التي تزرعها تلك المدارس في العقول، واضِعين الصورة المِثالية للأنثى كساعةٍ رملية، في إحدى تلك المدارس ناظرة المدرسة تضع مشدًّا على خصر كل الفتيات الملحقات بالمدرسة، ويبقى ذلك المشدُّ ليلًا ونهارًا؛ مُستيقظاتٍ أو نائمات. باستثناء

ساعةٍ واحدة في الأسبوع يُزال من أجل التطهُّر، أي حتى تتمكن الفتاة من الاستحمام، ثم استبداله مرةً أخرى وإحكامه أكثر لتُحرَم مُرتديتُه من القدرة على التنفُّس بطريقةٍ طبيعية فتتسبَّب أقل صدمة في سقوطها أرضًا فاقدةً للوعي. وكان يُعتبر ذلك رقَّة، ويُعتبر ذلك أيضًا شيئًا أخلاقيًّا مُعتبرين المشدَّ مراقباً حاضرًا أبدًا يُجبر مُرتديتَه على ضبط النفس، مُسببًا لضحاياه تعاسةً دائمة مع استحالة الانحناء أو الاسترخاء.

كانت المشدَّات الحديثة على عكس مشدَّات أمي القديمة المصنوعة من عظام الحوت طويلة جدًّا حتى أنهم يصنعونها من الفولاذ، كيلا تنكسِر، ولكنَّ صلابتها تلك تُسبب جمود الأعضاء الداخلية، وتصنع تشوُّهات للقفص الصدري.

إحدى روَّاد تلك المدارس تسبب المشدُّ في كسْر واحدٍ من أضلُعها مُسببًا موتَها، ولكن خصرها وهي مُستلقية في نعشها لم يزد على الخمس عشرة بوصة.

كل ذلك مرَّ برأسي في لحظةٍ وشوكتي تسقُط في طبقي مُجلجلة.

جلستُ مصدومة تعتريني القشعريرة من الرُّعب، وبالرغم من ذلك غير قادرة على النطق بأي اعتراضٍ لأخي. فالحديث عن أمرٍ فائق الخصوصية مثل هذا مع رجلٍ أيًّا كان، لا يمكن تخيُّله.

كل ما صدر منِّي كان شهيقًا وأنا أقول: ولكن أمي...

– لا يوجَد أي دليلٍ على أن أُمَّك سوف تعود في أي وقتٍ قريب، ولا يُمكنني البقاء هنا إلى الأبد.

فكرتُ أنه «حمدًا لله على ذلك».

– ولا يمكنك أن تبقَي هنا لتَحيَي حياةً فارغة وحدَك. أليس كذلك يا إينولا؟

– ألن يبقى السيد والسيدة «لين»؟

عقد حاجبَيه واضعًا سكين الخبز الذي كان يدْهن بها الزبدة على خُبزه.

– بالتأكيد، ولكنَّ الخدَم لا يمكنهم أن يربُّوك.

– كنتُ أحاول أن أقول إنَّ أُمي لن يُعجبها...

– أمك فَشِلت في مسئوليتها تجاهك.

صارت نبرةُ صوته أكثر حدَّةً من سكين الخبز الذي يُمسكه.

– ما الذي سيحدُث لكِ إن لم تُحقِّقي بعض الإنجازات؟ وتحصُلي على قليلٍ من المكانة الاجتماعية؟ لن يمكنك الانتقال أبدًا للمجتمع المهذَّب، واحتمالات زواجك...

– كل هذا لا يُساوي شيئًا.

قلتُ مقاطعة:

– فأنا أبدو كشيرلوك.

أعتقد أنَّ صراحتي المبالغة صدمتْه.

- يا فتاتي العزيزة.

وقد خفَّت نبرة صوته:

- ذلك سيتغيَّر، أو سنُغيِّره.

أفترِض أنَّ ذلك التغيير سيأتي بالجلوس ساعاتٍ لا نهاية لها واضعةً كتابًا فوق رأسي، بينما أعزف على البيانو. أيام أقضيها في العذاب، بالإضافة إلى المشدَّات التي سأرتديها، و«مُحسِّنات الأثواب»، وربما بعض الشَّعْر المستعار، ولكنه لن يقولها صراحةً.

- أنتِ تأتين من عائلةٍ ذات سمعة وأصل، وببعض التحسينات فإنني على ثقةٍ أنكِ لن تُلحِقي بنا عارًا.

قلت: لطالما كنتُ عارًا، وسأظلُّ دائمًا. لن أذهب إلى أي مؤسَّسة «تشطيبات» للآنسات الصغيرات.

- بلى، ستفعلين.

والشرار في عينَيه عبر المائدة أراه في ضوء الشموع.

كنَّا قد توقَّفنا عن التظاهر أننا نتناول الطعام، وأنا مُتأكدة أنه يعلم جيدًا كما أعلم أنا أنَّ كلًّا من السيد والسيدة لين كانا يسترِقان السمع، ولكنني شخصيًّا لم أهتم.

رفعتُ صوتي قائلة: لا، ائتِ لي بمُربيةٍ إذا توجَّب عليك، ولكنِّي لن أذهب إلى أيِّ مدرسةٍ داخلية. لا يمكنك إجباري على الذهاب.

مرةً أخرى تقلُّ الحدَّة في صوته، ولكنه يقول: بلى يُمكنني، وسأفعل.

– ما الذي يَعنيه ذلك؟ هل ستضَعُني في أغلالٍ وتجرُّني إلى هناك!

زفر مُنزعجًا، ونظر للسقف ليُخبره: مثل أمها تمامًا.

ثم أعاد النظر لي بنظرةٍ استشهادية جمَّدَتْني وهو يقول في نبرةٍ عقلانية معسولة: إينولا، قانونيًّا أنا المتحكِّم تمامًا بكِ وبأُمِّك، أستطيع إذا رغبتُ أن أحبسك في غرفتك حتى ترَي العقل، أو أتَّخِذ أيَّ طُرق أخرى أراها ضروريةً لتحقيق النتيجة المرجوَّة، وأضيفي على ذلك أنني أخوكِ الكبير؛ فأنا أحمل مسئوليةً أخلاقية تجاهك، ومن الواضح أنك تُركتِ لفترةٍ طويلة دون رقيب، ربما أنا هنا في الوقت المناسب تمامًا لأُنقذك من حياةٍ ضائعة، ستفعلين ما أقوله لك.

في تلك اللحظة فهمتُ بالضبط شعور أُمي في الأيام التي تلتْ وفاة أبي، ولماذا لم تحاول أن تزور أخويّ في لندن، أو تستقبلهما في عزبة فرنديل،

ولماذا كانت تخدَع مايكروفت في حساب الأموال.

وقفت: العشاء لم يعُد يُثير شهيَّتي، أنا واثقة من أنك ستعذُرني.

كم أتمنَّى أن أقول إنني قد ذهبت إلى غُرفتي بكرامتي، ولكن الحقيقة هي أنني تعثَّرتُ في تنُّورتي، تدحرجتُ على السلالم.

في تلك الليلة لم أستطع النوم، في البداية، لم أستطع حتى أن أبقى ثابتةً في مكاني في رداء النوم حافية القدمَين. ظللتُ أتجوَّل في أركان غرفة نومي من أولها لآخرها، كما أتخيل أنَّ الأسُود في حديقة لندن تتجوَّل في أقفاصها فيما بعد؛ بعدما خفضتُ إضاءة المصباح الزيتي، وأطفأتُ الشموع، أبتْ عيناي أن تُغلقا.

سمعت خطوات مايكروفت وهو يعود إلى غرفة الضيوف، وسمعت السيد والسيدة لِين يصعدان لغرفتهما في الطابق العلوي، وأنا ما أزال راقدةً أحدق إلى الظلال.

لم يكن سبب حزني الشديد واضحًا بالكامل في البداية؛ لقد كان مايكروفت هو من أغضبني، ولكن رؤيتي المختلفة لأُمي هي ما سببتِ اضطرابي، كدتُ أشعر بالغثيان من تلك الأفكار، كان من العجيب التفكير في أُمي على أنها شخص مثلي وليست مجرَّد أم، ولكن هي كذلك، كانت ضعيفةً وقوية أيضًا.

شعرتْ أنها مُحاصرة كما أشعر الآن، شعرتْ بالظلم، بنفس الظلم، وأُجبرت على الطاعة، كما سأُجبر أنا.

أرادت أن تتمرَّد كما أتوق أنا للتمرد، دون أن أعرف كيف سأستطيع أو أقدِر على ذلك، ولكن في النهاية فقد فعلتْها؛ تمرُّد مجيد، يُحيُّرني. لماذا لم تأخذني معها؟

أركل الأغطية وأنطلق من السرير، رافعة من نور المصباح، إلى مكتبي، ذي الأطراف المزينة بالورود التي لم تنجح في إبهاجي الآن.

قبضتُ على ورقةٍ وقلمي الرصاصي من عدة الرسم، ورسمتُ صورة غاضبة لأمي، كلها تجاعيد، وفكٌّ عظيم، وبدَّلت فمَها بخط مستقيم، ورسمتُ القبعة العالية، والسترة ذات ظهر الديك الرومي، مُمسكة بمظلَّتها كَسَيف، بينما حشو الأرداف الضخم خلفها مُمتدٌّ كقطار.

لماذا لم تخبرني بالحقيقة؟ ولماذا تركتني خلفَها؟

حسنًا أستطيع أن أتفهَّم برغم الألم أنها لم ترغب في الوثوق في فتاة صغيرة بسرِّها، ولكن لماذا لم تترك على الأقل تبريرًا أو حتى وداعًا؟ ولماذا اختارت الرحيل يوم عيد ميلادي؟ أُمي في حياتها لم تأخُذ غرزةً بدون خيط، ولا بدَّ أن لدَيها سببًا، ولكن ما هو؟ لأنه...

اعتدلتُ فجأة على مكتبي فاغرةً الفاه.

الآن أرى.

من وجهة نظر أمي.

أمي كانت ذكية.. ذكية، ذكية، ذكية. لقد تركت لي رسالة كهديةٍ في يوم عيد ميلادي، ولذلك اختارت هذا اليوم دونًا عن أي يومٍ آخَر لترحَل.

يوم للهدايا حتى لا يلاحظ أحد...

انطلقتُ باحثةً أين وضعتها؟

احتجتُ إلى إشعال شمعةٍ حاملة إيَّاها معي حتى أستطيع الرؤية.

لم تكن على رفِّ المكتبة، لم تكن موضوعة على أيٍّ من المقاعد، لم تكن موضوعة على طاولة الزينة، لم تكن على الحوض، لم تكن على السرير، لم تكن على الحصان الهزَّاز الذي كان يومًا إحدى لُعَب أخويَّ. مذهولة مُتحيرة من غبائي ورأسي المشوَّش، أين وضعتها؟

وجدتُها داخل بيت الدُّمى المهمَل الخاص بي، ها هي حزمة صغيرة من أوراق الرسم الملوَّنة المنقوشة باليد، طُويت بحرصٍ من منتصفها، خِيطَ على طول الطيَّة، كتيبٌ مُشفَّر صنعتْهُ لي أمي.

ALO NEK OOL NIY MSM UME HTN
ASY RHC

بخطِّ أمي المميز، والحروف المشبوكة. نظرة واحدة على الشفرة الأولى جعلتْني أغلق عينيَّ راغبةً في البكاء.

فكِّري يا إينولا.

وكأنَّني أسمع صوت أمي يُشجعني من داخل رأسي: ستكونين بخير وحدَك يا إينولا.

فتحتُ عيني وحدَّقت إلى السطر، وحروفه غير المرتَّبة، وفكرت: حسنًا، بادئ ذي بدءٍ لن تكون الجملة كلها مكوَّنة من كلماتٍ ذات ثلاثة أحرف فقط.

آخذة ورقةً بيضاء فارغة من عدة الرسم، جذبتُ المصباح الزيتي من ناحية وشمعة من ناحية أخرى، ثم نسختُ الحروف كالتالي:

ALONEKOOLNIYMSMUMEHTNASYRHC

الكلمة الأولى كانت واضحة. Alone أي وحيدة، أم علَّها تقصد إينولا إذا عكستُ الكلمة؟

أجرِّب أن أعكس كل الحروف:

CHRYSANTHEMUMSMYINLOOKENOLA

تمرُّ عيناي على الجزء الأول وتتوقَّفان عند الثلاثة حروف MUM، أم.

أمي كانت تبعث لي برسالة عن نفسها؟

MUMS MY IN LOOK ENOLA

أمك الخاص بي داخل انظُري إينولا

ترتيب الكلمات يبدو معكوسًا

ENOLA LOOK IN MY

إينولا انظري داخل

بحقِّ السماء، هي لا تقصد MUM أم، ككلمة بذاتها، ولكن تقصد SCHRYSANTHEMUM، أي الأقحوانات.

أطراف الصفحة المزينة بالزهور أخبرتني؛ أقحوانات ذهبية مُزخرفة على جوانب الصفحة.

لقد فككتُ الشفرة.

لم أكن غبيةً تمامًا.

أو ربما كنت، ما الذي تعنيه بـ«إينولا انظري داخل أقحواناتي؟» هل دفنتْ أمي شيئًا في أصيص زهورٍ في مكان ما؟ من غير المحتمل، لا أظنُّ أن أمي قد أمسكت برفشٍ في حياتها.

كانت تلك المهام مسئولية «ديك»، وفي أي حالٍ لم تكن أمي بُستانية، كانت تحبُّ ترك الزهور القوية مثل الأقحوانات تتولَّى نفسها.

الأقحوانات في الخارج، أي أقحوانات يمكن اعتبارها الأقحوانات الخاصة بها؟ دقَّت ساعة البهو السُّفلي في الثانية صباحًا، لم يسبِق لي من قبل أن بقيتُ ساهرةً حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل.

شعرتُ بغمامة على عقلي وأنه يطير حرًّا بعيدًا عن رأسي.

شعرتُ أني مُتعبة بما يكفي أن يُمكنني الذهاب للنوم الآن، ولكني لم أرغب في ذلك. لحظة. أمي أعطتني كتابًا آخر (معنى الزهور).

أتناوله سريعًا باحثة في الفهرس عن الأقحوانات: «إهداء الأقحوانات يُشير إلى الارتباط العائلي، وبالتالي إلى المودة».

الإشارة إلى المودة كانت أفضل من لا شيء.

بينما أنا جالسة قررتُ أيضًا البحث عن معنى زهرة البسلة: «الوداع، وداعًا وشكرًا على الوقت الجميل، هدية تقدَّم عند الرحيل».

الرحيل.

بعدها بحثتُ عن زهرة الشوك: «التحدي».

ابتسمتُ في حزن.

إذن فقد تركت لي أمي رسالةً برغم كل شيء، الرحيل والتحدِّي في المزهرية اليابانية في غرفة جلوسها التي زُين حائطها بألوان الماء.

زهور مرسومة بألوان الماء.

جفلتُ وابتسامتي تتَّسع.

- إينولا.

همستُ لنفسي: تلك هي.

أقحواناتي، هي تتحدَّث عن تلك الزهور التي رسمْتها، وبروَزتْها على الحائط في غرفة الجلوس.

دون أن أُكثر التفكير في كيفية أن يكون هناك شيء داخل لوحة أمي، أو ما الذي يمكن أن يكون؛ علمتُ أنني فهمت الرسالة، وعلمتُ أنَّ عليَّ الذهاب ورؤيتها في تلك اللحظة، في أكثر ساعات الليل إظلامًا. بينما لا يوجد أحد، خاصةً أخي مايكروفت، يُمكنه أن يُلاحظ.

الفتيات يجب عليهنَّ اللعب بالدُّمى.

على مدار الأعوام كان الكبار الذين لا يعنون سوى الخير قد أهدوني دُمًى متنوعة.

كنت أكره الدُّمى، وأنزع رءوسها حين أستطيع، ولكن الآن أخيرًا وجدتُ استخدامًا لهم.

داخل رأس الدُّمية المفرَّغ ذات الشعر الأصفر كنتُ قد خبأتُ المفتاح لغُرَف أمي. احتجت إلى دقيقة لإخراجه، ثم فتحتُ باب غرفتي، وقد خفضت إضاءة المصباح الزيتي، وحملتُ شمعة معي.

كان باب غرفة أمي مقابلًا لباب غرفتي في نهاية الطرقة بجانب باب غرفة الضيوف حيث ينام مايكروفت.

تمنَّيتُ أن يكون نائمًا، وتمنَّيت أن يكون ثقيلَ النوم.

حافية القدَمين والشمعة في يدٍ والمفتاح الثمين في الأخرى تحرَّكتُ على أطراف أصابعي في الطرقة، حين اقتربتُ من باب غرفة مايكروفت المغلق جاء صوت يُشبه صوت خنزير مُتمددًا تحت الشمس؛ يبدو أن أخي يُشخِّر. إشارة إلى أن نومه ثقيل بالتأكيد.

ممتاز.

محاوِلةً ألَّا أُصدر أقلَّ قدرٍ من الضوضاء أدخلتُ المفتاح في قفل باب أمي. أدرتُ المفتاح وأنا أُدير المقبض، ومع طقَّة المزلاج جاء شخير مقطوع من غرفة نوم مايكروفت.

أستدير لأنظر إلى باب غرفته مُتجمِّدة في مكاني.

أسمع أصوات حركة وكأنه يتقلَّب. صوت أزيز الفراش، ثم عادت معزوفة الشخير.

دلفتُ إلى غرفة أمي وأغلقت الباب من خلفي مُطلقة زفيرًا، رفعتُ الشمعة وأنا أتصفَّح الحوائط؛ الكثير من الزهور قد رسمتها أمي بألوان الماء. بحثتُ في الحوائط الأربعة، وأنا أُجهد عينيَّ في تمييز الصور في إضاءة الشمعة الضعيفة.

في النهاية وجدتُ رسمة لأقحوانات ذهبية تُماثل الموجودة في كتاب الشفرة.

أقف على أطراف أصابعي، بالكاد أصل إلى حرف البرواز.

كان هشًّا، منحوتًا ليُماثل أصابع الخيزران.

كانت أطرافه معقوفة ومعشَّقة، رفعتُ البرواز مُحرِّرة السلك الخلفي من المسمار الذي عُلِّق عليه، حملتُ البرواز إلى طاولة الشاي، حيث وضعتُ الشمعة وجلست أتفحَّصها.

«إينولا انظري داخل أقحواناتي».

كثيرًا ما رأيتُ أمي تبروِز صورها، كان البرواز يوضع أولًا على وجهه على المنضدة ثُم الزجاج المنظَّف جيدًا، ثم برواز آخَر داخلي مصنوع من ورقٍ ثخين مصبوغ حيث تلصق في أطرافه الرسمة المائية، ثم في النهاية توضَع قطعة رفيعة من الخشب مدهونة بالأبيض، ومسامير صغيرة جدًّا لتثبيتها في الأطراف لتُبقي كل شيء في مكانه.

في النهاية تلصق أمي ورقةً بنية على الظهر لتُخفي المسامير وتمنع دخول الأتربة.

قلبتُ صورة الأقحوانات على ظهرها، ونظرتُ للورقة البنية، آخُذ نفسًا عميقًا وأغرس أظافري في رُكنٍ محاولة تقشير الورق البني كقطعةٍ واحدة.

ولكن أفشل في ذلك وينقطع شريط طويل بُني، ولكني أتجاهل ذلك وقد رأيتُ شيئًا مُختبئًا في أسفل ظهر الصورة ما بين الورقة البُنية والظهر الخشبي. شيئًا مطويًّا، شيئًا أبيض.

رسالة من أمي.

رسالة تُفسر رحيلها وتُعبر عن ندمها وحُبها، ربما أيضًا ستحمِل دعوةً أن أنضمَّ لها.

بينما قلبي يدقُّ عاليًا: أرجوك، أرجوك، وأصابعي تهتز، التقطتُ الورقة المستطيلة البيضاء.

وفتحتُها مُرتعشة.

نعم كانت رسالة من أمي، ولكن لم تكن ما أمَّلتُ أن أجده.

كانت ورقةً نقدية صادرة من بنك إنجلترا تساوي مائة جنيه إسترليني.

كان ذلك مالًا أكثر مما يراه الشخص العادي خلال عامٍ كامل.

ولكن لم تكن الأموال ما أردتُه من أمي.

عليَّ أن أعترف أنَّني ظللتُ أبكي حتى غفوت، ولكني غفوتُ أخيرًا. نمتُ حتى النهار التالي، ولم يُزعجني أحدٌ باستثناء السيدة «لين» التي جاءت مرةً لتوقظني متساءلةً إذا كنتُ أشعر بالمرض.

أخبرتُها أن: «لا، كنت فقط مُتعبة».

فتركتني، وسمعتُها تُخبر أحدهم في الأغلب زوجها في الطرقة.

- إنها في حالة مُزرية. لا عجب تلك الحَمَل الوديع.

حين استيقظتُ في أوائل الظهيرة وبالرغم من رغبتي الشديدة في كلٍّ من الإفطار والغداء، لم أقُم من فراشي، بل ظللتُ ثابتة، وأجبرتُ نفسي على تقييم وضعي برأسٍ صافٍ.

حسنًا، برغم أنَّ ذلك لم يكن ما تمنَّيتُه، ولكن الأموال كانت شيئًا جيدًا، أمي قد تركتْ لي في السرِّ مبلغًا كبيرًا، والذي حصلتْ عليه بدون شكٍّ من مايكروفت بطُرق مُلتوية. هل كان من المناسب أن أحتفِظ به؟

لم تكن هذه أموالًا مايكروفت كسَبَها، ولكن على حسب فهمي؛ هي أموال قُدِّرت له لمجرد أنه الابن البِكر لأبي.

كان ميراثًا أرستقراطيًّا، قرون من أموال الإيجار، والمزيد يأتي كلَّ عام، ولماذا؟ من أجل عزبة فرنديل، والأراضي التي حولها.

الحقيقة أنَّ المال كان مثل الثرايَات يأتي مع المنزل، والذي كان منزل أُمي، أو على الأقل يجب أن يكون منزل أمي. قانونيًّا فإنَّ الأموال لم تكن لي ولا لأمي.

ولكن أخلاقيًّا فقد شرحتْ لي أمي الكثير والكثير من المرَّات كيف أن تلك القوانين غير عادلة، لو عمِلت امرأة لتكتُب وتنشر كتابًا على سبيل المثال؛ فإنَّ كل الكسب القادم من وراءِ هذا الكتاب من المفترَض أن يذهب لزوجها. أيُّ حماقة تلك؟!

كم سيكون من الحُمق إذن أن أُعطي الأموال لأخي مايكروفت فقط لأنه وُلد قبلي؟

يمكن للقوانين أن تقفز في البحيرة، فقد قررتُ أنَّ -أخلاقيًّا- تلك الأموال لي، أمي ضحَّت وكافحت لانتزاع تلك الأموال وتركتها لي.

لقد تركتْ لي أمي الكثير من الألغاز، ما الذي عليَّ أن أفعله بتلك الأموال؟

كنتُ بالفعل أعرف بشكلٍ ما الإجابة على هذا السؤال، وقد أعطتْ بذاتها مثلًا.

بعد مرور خمسة أسابيع كنتُ مستعدة – في أعين قاطني عزبة «فرنديل»– كنت مُستعدة للذهاب إلى المدرسة الداخلية، ولكن في عقلي كنت مستعدة لمغامرةٍ من نوع آخر.

بالنسبة للمدرسة الداخلية؛ فإنَّ الخيَّاطة كانت قد جاءت من لندن، وأخذت غرفة كانت فارغة منذ فترة، كانت تخصُّ واحدة من الخادمات.

أطلقت زفيرًا عاليا مُحبطًا حين رأت ماكينة الخياطة القديمة، ثم أخذت مقاساتي:

الوسط ٢٠ إنشًا.

كبير جدًّا.

الصدر ٢١ إنشًا

صغير جدًّا جدًّا.

الفخذان ٢٢ إنشًا.

غير مناسب تمامًا.

ولكن كلًّا يمكن إصلاحه. من مجلة خاصَّة بالأزياء لم تكن أمي لتسمح بدخولها المنزل أبدًا حدَّدتِ الخياطة عدة إعلانات.

المكبِّر: مشدٌّ مثالي للحصول على الشكل الرفيع المتقن. لا تستطيع الكلمات أن تَصِف تأثيره الساحر الذي لا يمكن الحصول عليه بأي مِشدٍّ آخر في العالم. بطانة رخوة تمزج ما بين النعومة والخفَّة والراحة. يمكن ضبطها حسب رغبة المستخدِم. تصنع الانحناءات الجميلة. يُرسل المشدُّ عن طريق البريد، في طردٍ عادي عند استلام الحوالة، مضمون، ونضمَن إعادة الأموال إن لم يَحُزْ على رضاك. احذرْ التقليد.

طُلبت هذا المِشد، وبدأت الخياطة في صناعة فستانٍ مُنطفئ الألوان ذي عنق عالٍ مُخصص لخنقي. وتنُّورة حريرية منفوشة مُمتدَّة على الأرض فأتمكن بالكاد من المشي.

اقترحتْ أن تخيط فستانين بمقاس تسعة عشر ونصف إنش وسط، ثم فستانين بوسط مقاس ١٩ إنش، وآخرَيْن مقاس ١٨ ونصف إنش، وهكذا دواليك أصغر فأصغر متوقِّعة أن وسطي سيصغُر كلَّما كبرت.

وفي تلك الأثناء صارت برقيَّات شيرلوك هولمز أكثر اقتضابًا تُبلغنا أنه لا أخبار عن أمي.

لقد تتبَّع بعضًا من أصدقائها القدامى، وزملائها الفنانين، ومعارفها، حتى أنه سافر إلى فرنسا ليبحث عن عائلتها الممتدَّة، عائلة الفيرنيتس، ولكن دون فائدة.

كنتُ بدأت أن أشعُر بالخوف على أُمي مرةً أخرى، لمـا لم يستطع مُحقق عظيم إيجادها.

ربما وقع لها حادث، أو أسوأ من ذلك؛ جريمة شنعاء.

تغيَّر تفكيري على أي حالٍ في اليوم الذي أنهت فيه الخياطة أول فساتيني. في ذلك الوقت كان مُتوقَّعًا مني أن أرتدي المشدَّ الذي وصل في حقيبةٍ ورقية غير مُعلَّمة، ومُلحق بها نفَّاخ أمامي ونفَّاخ خلفي. بالتأكيد. كان ذلك اختراعًا مسجلًا، وقد وجِد كمُحسِّن أثواب حتى لا يتمكن أبدًا ظهري أن يلامس أي مقعد أجلس عليه، وأيضًا كان مُتوقَّعًا مني أن أعقد شعري ككعكةٍ مُؤمِّنة إيَّاه بالكثير من مشابك الشعر التي تُغرَس في فروة رأسي، مع خصلاتٍ مموَّجة من الشعر الزائف، مُثبَّتة بالطريقة نفسها. وكمكافأة لي ارتديتُ الفستان الجديد مع حذاءٍ جديد يزيد من عذابي، وصار عليَّ أن أتبختر في أنحاء المنزل كي أتدرَّب على أن أصير آنسةً أرستقراطية.

في ذلك اليوم أدركتُ فكرةً قد تبدو غير عقلانية، ولكن أكيدة في ذهني؛ أنه حيث ذهبت أمي فهي بالتأكيد ذهبت في مكان لا يوجَد به مشابك شعْر، ولا مشدَّات، ولا مُحسِّنات أثواب.

في تلك الأثناء أرسل أخي «مايكروفت» ببرقيةٍ يُبلغني أن كل شيء قد نُسِّق، وأنه يجب عليَّ أن أكون حاضرة (في مدرسة بيت الرُّعب تلك)، في

تاريخ كذا وكذا، مرسلًا تعليماتٍ للسيد «لين» أن يتأكد من توصيلي إلى هناك.

الأكثر أهمية بخصوص مُغامرتي؛ أنه صار واجبًا عليَّ أن أرتدي تلك الفساتين لأكبر وقتٍ ممكن في جميع أنحاء المنزل.

زاد وقت بقائي في غرفتي، مُغلقة على نفسي بابها، لأنام أغلب الوقت، محاولة التقليل من توتري.

السيدة «لين» التي تعرِض عليَّ جيلي الكوارِع وأطعمةً مُشابهة قلقتْ من العجائب الصغيرة التي صرتُ أرفضها؛ أصبحت قلقةً عليّ كثيرًا حتى أنها تواصلت مع «مايكروفت»، الذي طمأنها أنَّني في المدرسة الداخلية سأفطر الشوفان، وأرتدي الصوف، وذلك سيجعلني أستعيد صحَّتي.

بالرغم من ذلك فقد قامت باستدعاء الصيدلي المحلي، وبعدها استدعتْ طبيب شارع «هيرلي» قادمًا من لندن. لم يقُل أيهما أي شيءٍ ألمَّ بي.

في الحقيقة أنني كنتُ أختلي بنفسي في غرفتي مُتجنِّبة المشدَّات ومشابك الشعر والأحذية الضيقة، وكل ما شابه، وأعوِّض الكثير والكثير من النوم؛ فلم يكن أحد يعرف أنَّ كل يومٍ –بعد أن أتأكد أنَّ الجميع قد ذهبوا إلى النوم– كنت أقوم لأعمل على كتاب الشفرة، خلال ساعات الليل، كنتُ أستمتع بالشفرات رغم كل شيء، كوني أحب أن أعثُر على الأشياء المخفية، وشفرات أمي وفَّرت لي ذلك بطُرق جديدة.

في البداية أكتشف المعاني المختبئة، ثم الكنز. كل شفرةٍ أكشفها تقودني إلى غرف أمي لأبحث عن أسرارٍ أخرى قد تركتْها لي.

بعض الشفرات لم أستطع حلَّها، مما ثبَّطني، حتى أنني فكرت أن أنزع كل اللوحات المائية المعلقة في غرفة أمي وأمزق ظهرها، ولكن لم يبدُ ذلك حلًّا مناسبًا.

أيضًا كان هناك الكثير والكثير والكثير من تلك اللوحات، والأكثر من ذلك أنه لم تكن كل تلك الشفرات توجهني إليهم، فعلى سبيل المثال كان هناك صفحة في كتاب الشفرات مُزينة باللبلاب، مُمتد على سور حديقة، على الفور ودون حتى أن أنظر إلى الشفرة تسللتُ إلى غرف أمي بحثًا عن لوحة مائية بها لبلاب، وجدت اثنتين ومزَّقت ظهرهما دون أن أجد أي شيءٍ قبل أن أعود مُحبَطة إلى غرفتي لأواجه الشفرة.

AOEOLIMESOK

LNKONYDBBN

ماذا بحق السماء؟ بحثتُ عن معنى اللبلاب في كتاب معاني الزهور، وجاء معنى «الإخلاص»، اللبلاب المعلق أنه يمثل الإخلاص، برغم المعنى المؤثر، لم

يُفدني ذلك بشيء. عبثت بالشفرة لفترةٍ قبل أن أستطيع أن أجد اسمي في أول ثلاثة حروف من السطر الأعلى مضافًا إليها حرفان من الصف الأدنى، ثم لاحظت كيف رسمت أمي اللبلاب على شكل زجزاجٍ بطريقة غير طبيعية، وأيضًا أن الزجزاج الذي رسمتْه كان ينمو من اليمن إلى اليسار.

مُتبرِّمة اتبعتُ نفس النمط، وأعدتُ كتابة الشفرة

KNOBSBEDMYINLOOKENOLA

KNOBS BED MY IN LOOK ENOLA

كان الناتج حين أقرأه من اليمين إلى اليسار:

ENOLA LOOK IN MY BED KNOBS

إينولا ابحثي في أعمدة سريري

ذهبت مرة أخرى على أطراف أصابعي، تحت رداء الليل، لأنزع المقابض المستديرة التي تغطي أعمدة السرير النحاسية، وداخل تلك الأعمدة اكتشفت كمية مهولة من الأوراق المالية.

كان يجب عليَّ بدوري أن أجد مكانًا ذكيًّا لأُخبئ تلك الأموال في غرفة نومي، لا يمكن إيجاده خلال غزوات السيدة «لين» بمنفضة الأتربة. كانت حاملة الستائر في غرفتي مصنوعةً من عمودٍ نحاسي مثل أعمدة سرير أمي، وأيضًا كان هناك مقبضان في نهايته. استطعتُ أن أستخدمهما في إخفاء الأموال، وتمكنت من فعل ذلك قبل استيقاظ السيد والسيدة «لين».

كانت لياليَّ أكثر نشاطًا من نهاراتي، لم أجد أبدًا أكثر ما تمنيت، أي رسالة وداع، أي تفسير من أمي، ولكن في الحقيقة عند تلك النقطة لم تكن هناك أي حاجة للتفسير، علمتُ أنها كانت تقوم بذلك الخداع من أجلي، أو جزء منه على الأقل كان من أجلي، وعرفت أن الأموال التي خبَّأتْها لي بذكاء كانت من أجل أن تعطيني حريتي.

بفضل أمي كان يملؤني الأمل والقليل من التوتر في ذلك الصباح المشمس في أواخر أغسطس، وأنا أركب في عربة الخيل التي ستأخذني من البيت الوحيد الذي عرفته.

قد نسَّق السيد «لين» مع مُزارع محلي أن يستعير حصانًا وعربة من أجلي ومن أجل السائق حتى أصل إلى محطة السكة الحديدية في راحةٍ وإن لم يكن في أناقة.

– أتمنَّى ألا تمطر.

علقت السيدة «لين» وهي تقِف أمام مدخل المنزل لتودِّعني.

لم تُمطر لعدة أسابيع، منذ اليوم الذي ذهبتُ فيه للبحث عن أمي.

قال السيد «لين»: على غير المرجَّح.

وهو يمدُّ يده ليُساعدني في الصعود إلى العربة كسيدةٍ أرستقراطية. ويده الأخرى تحمل لي مظلَّةً بيضاء مُكشكشة.

- لا توجَد سحابة واحدة في السماء.

ابتسم السيد والسيدة «لين» وأنا أضع رفد فستاني أولًا في المقعد الخلفي ليملأ معظم المساحة، وكان «ديك» يجلس في المقدمة كسائق.

كانت السيدة «لين» قد نسَّقت شعري، ليكون معقوصًا للخلف كما هي الموضة، ولأتمكن من ارتداء قُبعة ليبدو رأسي كطبق عشاء من القش، وقد مالت القُبعة إلى الأمام قليلًا فوق عينيَّ.

ارتديتُ بذلة نسائية رمادية داكنة اخترتها بعناية لتكون غير مُفسِّرة لتفاصيل الجسد، كان اللون قبيحًا بالفعل، بمقاس وسط ١٩ ونصف إنش وتنُّورة كاملة. تخفي الوسط سُترة طويلة، وقد استغللتُ ذلك بفتح أزرار التنُّورة حتى أتمكن من التنفُّس.

قال السيد «لين»: تبدين كسيدة أرستقراطية يا آنسة إينولا.

ثم تحرك للخلف وهو يكمل: ستكونين مصدر فخر لعزبة فرنديل، أنا واثق من ذلك.

لم يكن يعلم.

بصوتٍ مرتعش جاء صوت السيدة «لين»: سنشتاق إليك.

وللحظة فإنَّ قلبي عاتبَني وأنا أرى الدموع تنساب على وجهها العجوز الغض.

- شكرًا.

قلتُها بجمودٍ مُحاوِلةً أن أتمالك مشاعري: ديك، انطلق.

طوال الطريق إلى البوابة كنت أحملق في أذن الحصان، أخي مايكروفت كان قد استأجر رجلًا لتنظيف المرج، ولم أرِد أن أرى شجيرات الورد البرية وقد قُطعت.

- وداعًا يا آنسة إينولا، حظ سعيد.

قالها الحارس كوبر، وهو يفتح لنا البوابة.

- شكرًا يا كوبر.

قلتُها والحصان يتبختر عبر كينفرود.

أطلقت زفيرًا وسمحتُ لنظري بتصفُّح الأنحاء آخذة نظرة وداع لمِحل الجزارة ومحل الخضراوات، والعوارض السوداء، والأكواخ البيضاء، والحانة، ومكتب البريد، ومركز الشرطة، وأكواخ أخرى ذات نوافذ صغيرة، والنُّزل، والحداد، ومقر الكاهن، والكنيسة الجرانيتية ذات السقف المغطَّى بالطحالب، وشواهد القبور المائلة في المقبرة...

تركَتَنْا نتحرك بعيدًا عن المقابر قليلًا قبل أن أقول فجأة، وكأن الفكرة داهمتني في التو: ديك توقف. أرغب في أن أودع أبي.

أوقف الحصان، وسألني: ماذا قلتِ يا آنسة إينولا؟

حين تتعامل مع «ديك» فواجب عليك أن تفسِّر حتى أبسط الأشياء.

- أرغب في زيارة قبر أبي.

قلتُ له بصبر، تاركة مسافة بين كل كلمة.

- وأن أتلو صلاةً عليه في مقابر الكنيسة.

أبي العزيز، لم يكن ليرغب في صلاة مثل تلك، كان مُؤمنًا بالمنطق، ولا شيء سواه. أمي قالت لي في مرة أنه لم يرغب حتى في جنازة، كانت رغبته أن تُحرق جثته، ولكن بعد وفاته، تم تجاهل رغبته خوفًا من أن يتسبَّب ذلك في فضيحة لا تُغتفر ترجُّ أصداؤها أنحاء كينفورد.

بطريقة حديثه البطيئة قال ديك بقلق: يجب عليَّ أن أوصلك لمحطة القطار يا آنسة.

- هناك الكثير من الوقت، يمكنك أن تذهب إلى الحانة لتشرَب كوبًا في انتظاري.

- حسنًا إذن.

أدار الحصان وعاد إلى باب الكنيسة، وجلسنا للحظاتٍ قبل أن يتذكر أن من المفترض عليه أن ينزل ليفتح لي الباب ويُساعدني على النزول.

- شكرًا.

قلتُ له وأنا أسحب يدي المكسوَّة بالقفاز الأبيض:

- عُد لتصحبني بعد عشر دقائق.

كلام فارغ بالطبع، كنت أعرف أنه لن يقضي في الحانة أقلَّ من نصف ساعة.

- بالتأكيد يا آنسة.

قالها مُحيِّيا إياي، بأن أمال قُبعته قليلًا.

انطلق بعيدًا، ومن بين دوَّامة التنانير استطعت أن أدخل إلى باحة الكنيسة.

كما توقَّعت وتمنيت وجدتُ أنها خالية.

بعد أن مسحت بعيني المقاعد الفارغة، ارتسمت البسمة على وجهي. ألقيت بمظلتي في صندوق التبرعات، وثنيت تنُّورتي فوق الركبة، وانطلقتُ راكضة عبر الباب الخلفي إلى ساحة المدافن المشمسة.

عبر الطرق المتعرِّجة اتَّخذت طريقي من وسط شواهد القبور، ركضت حريصة على أن تظلَّ الكنيسة في ظهري مُخفية إيَّاي عن أعين الشهود الذين يمرُّون من شارع القرية الواسع.

حين وصلت إلى نهاية أراضي باحة الكنيسة قفزتُ من فوق السور الصغير، اتجهت يمينًا وركضت قليلًا، ثم كانت هناك بالفعل في انتظاري درَّاجتي التي أخفيتُها بين الشجيرات ليلة أمس في ساعات الليل على ضوء القمر المكتمل.

على ظهر درّاجتي كنت قد ربطتُ صندوقين أحدهما في السلة الأمامية، والآخر في الخلف. كلاهما مليء حتى آخره بالشطائر والمخلّلات والبيض المسلوق وزمزمية مياه، وضمّادات في حالة وقوع حادثة، وعدة تصليح إطارات، ورداء النيكيربوكرز، وحذائي الأسود المريح القديم، وفُرشة أسنان وأشياء أخرى.

وأخفيت صندوقين آخرين مُخبّأين تحت ملابسي حول جسدي، واحد على صدري، والآخر خلفي؛ الأمامي كان مُحسِّن ملابس صنعته بنفسي من مواد أخذتها من غرفة أمي، وواحد يُماثله في الخلف.

لماذا حين تركتْ أمي المنزل ارتدت مُحسِّن ملابس ولكنها تركت اللبادة؟

كانت الإجابة واضحة لي، فقد حشَتْ في ذلك المحسِّن الأمتعة اللازمة التي احتاجتها للهروب.

وحيث إن الله قد أنعم عليَّ بصدر مسطح فقد قلّدتها؛ بل استطعت أن أطوِّر من الحيلة؛ فكل مُحسِّنات الملابس وحشوات الأرداف قد تركتها ورائي في عزبة فرنديل، وقد حشوت كل الأجزاء التي يمكن حشوها في ملابسي الداخلية، والأموال التي وجدتها، وبالإضافة إلى ذلك فقد طويتُ بحرص فستانًا آخر قد اخترته ووضعته ما بين سترتي وثوبي، وفي جيوبي فقد وضعت المناديل وصابونًا وفرشاة شعر، ومشطًا، وأيضًا كتيب الشفرات الغالي، وبعض

النشادر، وبعض الحلويات الغنية بالطاقة. بالفعل قد استطعت أن أضع ما يُساوي حمل صندوق من الأساسيات.

قافزةً على درَّاجتي بدَّلتُ عبر الأرياف. سائق الدرَّاجات الجيد لا يحتاج إلى طريق.

سأتبع الممرات الزراعية، والأراضي الرعوية في الوقت الحالي؛ حيث كانت الأرض صلبةً كالحديد؛ فلن أترك أي آثارٍ خلفي.

حين يأتي الغد أتخيل أن أخي المحقق العظيم شيرلوك هولمز سيحاول أن يعثُر على أخته المفقودة أيضًا. سيتوقَّع أنني أهرب منه؛ لذلك فإني لن أفعل ذلك، بل سأهرب في اتجاهه، كان يعيش في لندن هو ومايكروفت، ولذلك السبب، ولأنها أخطر وأكبر مدينة في العالم؛ ستكون آخِر مكان يتوقعون أن أغامر بالذهاب إليه، ولذلك سأفعل.

سيتوقَّعون أن أتنكَّر كصبي، وفي الغالب قد سمعوا عن حُبي لارتداء النيكربوكرز، وفي مسرحيات شكسبير والأعمال الخيالية الأخرى فإنَّ الفتيات الهاربات دائمًا ما يتنكرنَ كصبيان، ولذلك لن أفعل.

سأتنكَّر على هيئة آخِر شيء يتوقَّعه أخواي، وقد قابلاني كطفلةٍ ترتدي فستانًا بالكاد يغطي ركبتيها.

سأتنكَّر في صورة امرأة ناضجة، وبعدها سأذهب لأجد أمي.

كان باستطاعتي أن أقود الدرَّاجة مباشرة إلى لندن مستخدمة الطريق الرئيسي، ولكن ذلك لن يصلح؛ سيَراني العديد من الأشخاص.

لا، خُطتي للوصول إلى لندن كانت ببساطة -وبمنطقية على ما آمُل- هي ألا يكون لديَّ خطة. فإذا كنت أنا ذاتي لا أعرف ما الذي أفعله، فكيف بأخويَّ أن يُخمنا؟

سيضعان احتمالات بالطبع، سيقولان أُمنا أخذتها من قبل إلى مدينة «باث»، فربما ذهبت إلى هناك، أو سيقولان في غرفتها يوجد كتاب عن مدينة «ويلز»، وهناك علامات بالقلم الرصاص على الخريطة، ربما ذهبت هناك.

أمَّلت أن يجدا الكتاب الذي وضعتُه في بيت الدُّمى كدليل مُزيف، بينما كتاب معاني الزهور خبأته بين مئات الكتب في المكتبة في الدور السُّفلي؛ حيث إنه ضخم جدًّا، كي أحمله معي.

مايكروفت وشيرلوك سيستخدمان تحليلهما الاستنباطي؛ لذا فقد قدَّرت أنه يجب أن أثق في الحظ، سأترك الأراضي تقودني ناحية الشرق، وسأختار الأراضي الصخرية الصلبة كي لا تظهر آثار إطارات الدرَّاجة عليها على الأقل.

لم يهم أين سأجدني في نهاية اليوم، أو اليوم الذي يليه. سوف أتغذى على الخبز والجبن، وسأنام في الخلاء كالغجَر، وفي النهاية سأقابل شريط السكة الحديد، وباتباعه بطريقةٍ أو بأخرى، سأجد محطةً وطالما تلك المحطة ليست محطة «تشيسورليا» حيث سيذهب أخواي بالتأكيد للتحقيق؛ فأي محطة في إنجلترا ستكون مناسبة حيث إن كل خطوط السكك الحديدية تمرُّ بلندن.

وداعًا للخصر قياس ١٧ إنش، وإفطار الشوفان، وحصر حياتي حول فرص الزواج، لتصير تلك هي الإنجازات الأهم لتصنع منِّي سيدة أرستقراطية.

تلك كانت أفكاري السعيدة وأنا أبدِّل بجوار مرعى البقر، على طول ممرٍّ عشبي حتى وصلت إلى أراضٍ مفتوحة، بعيدًا عن الريف الذي أعرفه.

في السماء الزرقاء الممتدة فوق رأسي كانت الطيور تغني مثل قلبي.

وحيث إنني كنت أستخدم الطرق الجانبية، وأتجنَّب القرى؛ لم يرَني أشخاص كثيرون.

كل حين وآخر كان يرفع مُزارع رأسه من حقل اللفت دون اندهاش من مرأى امرأة أرستقراطية على دراجتها، فقد كانت هواية ركوب الدرَّاجات قد ازدادت انتشارا في الآونة الأخيرة، حتى إني التقيتُ بواحدة أخرى ترتدي اللون الرمادي على مسار الحصى، هززْنا رأسينا كلٌّ منَّا للأخرى، وقد بدا أنها تتوهَّج من الحرارة والتمرين.. أنت تعلم فإنَّ الخيول تعرق، والرجال تنضح، بينما النساء تتوهَّج.

أنا متأكدة من أنني كنت مُتوهجة أيضًا، شعرتُ بكل قطرات الوهَج تنساب على جوانبي تحت المشد الذي كنتُ أرتديه.

كانت الأجزاء المعدنية الممتدة تحت ذراعي تزعجني بشدة.

في الوقت الذي انتصفت فيه الشمس في كبد السماء؛ شعرت أنني مستعدة للتوقف من أجل الغداء، زاد تعبي أنني لم أكن قد نمتُ الليلة التي سبقتها.

جالسة تحت شجرة الدردار، على وسادة من الطحالب أردتُ بشدة أن أُمدد وأن أتوسَّد الأرض قليلًا، ولكن بعد أن أكلت، أجبرت نفسي على أن أصعد على درَّاجتي مرة أخرى، لأبعد أكبر مسافةٍ ممكنة قبل أن تبدأ المطاردة.

بعد ظهر هذا اليوم، وعلى ذِكر الغجر؛ قابلت قافلةً من قوافلهم كانت عرباتهم ذات ألوان فاقعة، وعليها الكثير من الرسومات.

كان مُعظم النبلاء يحتقرون الغجَر، ولكن أُمي كانت تسمح لهم في بعض الأحيان بالتخييم والاستراحة في عزبة «فرنديل»، وفي طفولتي كنتُ حقًّا مبهورة بهم.

حتى الآن، قد أوقفت درَّاجتي لأراقبهم وهم يمرُّون، محدقة في خيولهم الملوَّنة، التي كانت تتبختر بخطواتٍ عالية، ويهزُّون رءوسهم بالرغم من الحرارة.

وكان السائقون يحثونهم على الحركة للأمام. لوَّحت للمسافرين في عربات الغجر دون خوف. فمن كل الأشخاص على وجه البسيطة؛ فإن الغجر سيكونون آخِر من يتحدَّث للشرطة عني.

تجاهلني الرجال، ولكنَّ بعضًا من النساء عاريات الرأس والرقبة والأذرع رددنَ لي التحية، وكل الأطفال لوَّحوا.

كانت السيدة «لين» تدعوهم مُتسوِّلين ولصوصًا وقذِرين، أعتقد أنها قد تكون مُحقَّة، ولكن لو كنت أحمل بعض البنسات في جيبي، لألقيتُ لهم بها على الفور.

أيضًا في ذات الظهيرة على طريق ريفي، قابلتُ بائعًا متجولًا، كانت عربته مليئة بالأواني والمظلات والسلال والإسفنج، وأقفاص العصافير، وألواح الغسيل، وكل أنواع الخردوات.

أوقفته، وطلبتُ منه أن يُريني كل ما لديه ليبيعه. بداية من الغلايات النحاسية، وحتى أمشاط الشعر المصنوعة من أصداف السلاحف، حتى أُخفي نيَّتي الحقيقية لشراء الشيء الذي احتجتُه حقًا، وهو حقيبة سفر مصنوعة من قماش السجاجيد.

ووضعتها على ذراع الدراجة، وانطلقتُ في طريقي.

رأيتُ عابري سبيل آخرين في طريقي، بعضهم سائرًا، وآخرون في عربات متنوعة؛ بدءًا من العربات المغطاة بالمخمل، وصولًا إلى العربات التي تجرُّها الحمير. ولكن ذاكرتي بدأت تخبو وقد أنهكها التعب.

حينما جاء المساء، كان كلُّ جزءٍ في جسدي يتألَّم، وشعرت بالتهالك كما لم أشعر من قبل في حياتي.

أمشي الآن على آثار العشب الذي التهمتْه الأغنام، وأنا أدفع دراجتي بجواري وأتكئ عليها في نفس الوقت.

عانيتُ وأنا أصعد تلَّة منخفضة كان فوقها بستان من الزان، ما إن وصلت لظلال الأشجار حتى تركتُ دراجتي لتقع في مكانها.

بينما انهرتُ أنا راميةً بنفسي على التراب وأوراق الأشجار، وقد كانت معنوياتي على الدرجة نفسها من الانخفاض في المساء برغم أنها كانت في أوْجها هذا الصباح.

وتساءلتُ هل سأستطيع أن أجد بداخلي القوة لركوب الدراجة والانطلاق مرةً أخرى في الصباح؟

أستطيع أن أنام حيثما ارتميت، ولكن ولأول مرة أفكر: وماذا لو أمطرت؟ كانت خطتي ألا أضع خطةً تبدو وكأنها كانت خطة حمقاء وتزداد حماقتها مع كل نفَس تتنفَّسه.

بعد أن غرقتُ في اليأس لفترةٍ تمكَّنت من أن أشدَّ من هِمتي وأقوم. وفي الخفاء والظلام نزعت قبعتي، وبِنس شعري، والأمتعة التي حملتها حول جسدي، وفككتُ مشدَّ العذاب، وكنت مُنهكة جدًّا لأفكر حتى في الطعام.

ارتميتُ على الأرض مرة أخرى، مُرتدية تنورتي، ومستخدمة البذلة الرمادية الملوَّثة بالطين، كغطائي الوحيد، ونمتُ خلال لحظات.

استيقظتُ مرة أخرى في وقتٍ متأخِّر من الليل، وقد اعتادت ساعتي البيولوجية على هذا الروتين ممَّا فعلته في الأيام الماضية، ولم أكن أشعر بالنعاس، ولكني شعرت بجوع شديد.

لم يكن هناك قمر في السماء، فالغيوم كانت قد أخفت القمر، ويبدو أنها قد تمطر بالفعل، وبدون ضوء القمر أو حتى ضوء النجوم لم أتمكن من أن أرى حتى لأجد الطعام الذي عبَّأته، وتركتُه في صندوق الدراجة، ولم أستطع حتى أن أجد أيضًا عبوة الكبريت التي تركتُها بغباءٍ في المكان ذاته.

سأعتبر نفسي محظوظةً إن استطعت أن أتعثَّر في الدراجة في ذلك الظلام الحالك.

- اللعنة!

تمتمتُ بدون حياء وقد شعرت أن أغصان الزان تخدش وجهي وتنتش ملابسي بمجرد أن حركت قدميَّ، ولكن في اللحظة التالية كنتُ قد نسيت الطعام تمامًا، ووقفت أحدق بمسافة ليست ببعيدة حيث إني رأيتُ أضواء.

مصابيح غاز.

لمحتُها تأتي من بين جذوع الأشجار، على قمة التل. كانت تلمع في تلك المسافة مثل نجومٍ تدور حول الأرض.

قرية، لقد صعدتُ على قمة التل من ناحيةٍ دون أن أدرك من كثرة تعبي أنَّ هناك قرية تقع على الجانب الآخر.

ربما كانت مدينة كبيرة بما يكفي ليكون لديها مصابيح غاز. ربما مدينة لدَيها محطة سكة حديد!

وفي نفس اللحظة التي جاءت تلك الفكرة في رأسي جاء معها عبر الظلام صوت صافرة قطار طويلة.

في الصباح الباكر جدًّا جدًّا تسللتُ من غابة الزان في وقت مبكر جدًّا آمِلة ألا يلاحظني إلَّا أقل عددٍ من الناس. لم أكن قلقة أن يتعرَّفني أحدهم، ولكن كان سيبدو غريبًا أو مُستغربًا أن أرملةً ترتدي ملابس أرستقراطية على قدَميها حاملة حقيبة السفر خارجة من الأحراش.

نعم أرملة، فمن رأسي حتى أخمص قدمي ارتديتُ لباس حداد أسود كنتُ قد أخذته من خزانة أمي، في ذلك الزي يفترض المراقب أنني تزوَّجتُ ويُضيف لعمري عشر سنوات أو أكثر. ويسمح لي أيضًا أن أرتدي حذائي الأسود القديم المريح، والذي لن يلاحظه أحد. وأستطيع عقْص شعري للخلف على شكل كعكة بسيطة أستطيع صنعها بنفسي. وأفضل ما في الأمر أنه يجعلني غير قابلة للتمييز تقريبًا.

وعلى حافة قُبعتي السوداء كان هناك حجاب أسود كثيف يلفُّ حول رأسي بالكامل؛ حيث بدوتُ كأني ذاهبة لأغزو مُربِّي نحل. وحرصت على ارتداء قفازٍ جلديٍّ أسود، لأغطي غياب خاتم الزفاف.

منذ عشر سنوات أمي كانت أرفع؛ لذا فإن فستانها ناسبني دون أن أحتاج إلى شد المشد لمقاسٍ أضيق.

في الحقيقة إن المشد لم يكن له فائدة على الإطلاق سوى أنه يساعدني على حمل الأمتعة التي أخفيها على جسدي.

كل ما حملته على دراجتي أحمله الآن داخل حقيبة السفر، وما تبقَّى موضوع في جيوبي.

ولأن أمي كانت تكره حمل الحقائب الصغيرة؛ فقد كانت تحرص على أن تحتوي فساتينها على عددٍ كافٍ من الجيوب، لتضع فيها المناديل القماشية، وقطرات الليمون، والنقود المعدنية، وما ماثل.

السلام على رأسها العنيد المستقل، والذي كان السبب أيضًا في تعليمي ركوب الدراجة.

كنت أشعر بالأسى أنني اضطررتُ للتخلي عن دراجتي العتيدة، بين أشجار الزان، ولكني لم أندم على الإطلاق عن التخلي عن تلك البدلة القبيحة.

في ضوءِ الفجر الرمادي تسللتُ من التل العالي الذي يحيط بالمدينة، قد كان أمرًا متعبًا جدًّا، خاصة مع مجهود ليلة أمس، ولكني أدركتُ أن تلك الأوجاع والآلام كانت نعمة؛ حيث إنها أجبرتني على المشي ببطءٍ أكثر لأبدو أكثر وقارًا، وأتماشى مع تنكُّر الأرملة الأرستقراطية.

شققتُ طريقي على طول ممرِّ الحصى الذي يؤدي إلى المدينة.

ترتفع الشمس في شروقٍ باهت، يُهدد بالأمطار، وكان أصحاب المتاجر يفتحون حوانيتهم، وبائع الثلج يستعدُّ للقيام بجولاته، وخادمة متثائبة تلقي بمحتويات دلوٍ في المزراب، وامرأة أخرى رثَّة الثياب تعبُر الطريق، وبائعو الصحف تتكدَّس أمامهم الإصدارات الصباحية على رصيف، وبائع ثقاب يجلس في ركن، يصرخ: قال الرب ليكن نور فكان النور، أعواد ثقاب يا سيدي؟

بعضٌ ممن مرُّوا بجواره كانوا أرستقراطيين، نُبلاء، يرتدون القُبعات الطويلة، وآخرون كانوا عمَّالًا، ولكنه حين يوجه حديثه لأي منهم كان يحدثهم كلهم كنبلاء.

لم يحاول أن يبيعني أعواد ثقاب بالطبع، فالسيدات الأرستقراطيات لا يُدخنَّ.

حروف ذهبية مرسومة على بابٍ زجاجي كتب عليها (بلفدير تونسوريون) بجوار عمود مخطط باللونين الأحمر والأبيض.

لقد سمعت عن بلدة بعيدة عن (كينفورد) تُسمى (بلفدير).

أنظر من حولي لأجد محفورًا على عتب مبنًى حجري فخم؛ بنك (بلفدير) للادخار. جيد جدًّا. لقد حققتُ هدفي.

فكرتُ في ذلك وأنا أشقُّ طريقي بين فضلات الخيول، أنني أحسنت صنعًا بالنسبة لفتاة صغيرة ذات جمجمةٍ محدودة القدرات.

«بصل، بطاطس، جزر، أبيض» نادى رجل يدفع بعربة خشبية.

«قرنفل جديد لعروة سترات النبلاء» صرخت امرأة تحمل سلَّةً من الزهور.

«اختطاف مروع، اقرأ الآن» انطلق صوت الصبي الذي يبيع الصحف.

اختطاف؟

«الفيسكونت تويكسبيري» اختُطِف من عزبة «باسيل ويذر».

كنت أريد حقًّا القراءة عن ذلك، ولكن يجب عليَّ أولًا أن أجد محطة السكة الحديدية.

واضعة ذلك في اعتباري، اتبعت رجلًا يرتدي قبعةً طويلة، ومعطفًا طويلًا، واضعًا زهرة قرنفل في طية ملابسه الرسمية. ربما كان ذاهبًا إلى المدينة اليوم.

تأكدت فرضيَّتي ما أن سمعت تصاعد صوت المحرك الذي هزَّ هديرُه الرصيف من تحت حذائي. ثم رأيتُ سقف المحطة وأبراجها، وتمكنت من قراءة الساعة.

كنَّا ما نزال في السابعة والنصف، وسمعتُ أنين المكابح، والقطار يتوقَّف أثناء دخوله المحطة.

سواء كانت وجهة هذا الرجل لندن أم لا، فأنا لن أعرف أبدًا؛ حيث إنَّنا ما إن اقتربْنا من رصيف المحطة حتى استرعى انتباهي المشهد الذي يتكشَّف هناك.

تجمهر حشد مُذهل، وشكَّل عدد من رجال الشرطة خطًّا لإبقاء المتفرجين في الخلف بعيدًا بينما تقدم الأكثر أهمية مُرتدين أزياءهم الزرقاء إلى الأمام للقاء

القطار الذي وصل حديثًا. كان القطار عبارة عن مُحرِّك يسحب سيارةً واحدة خلفه على جانبها كُتب «قطار الشرطة السريع». منه خرج عدة رجال يرتدون عباءات السفر، وقد كانت تلك العباءات مُثيرة للإعجاب، ولكن غطيان الرأس التي كانوا يرتدونها، والتي كان يتصل بها سدَّادات أذن مرفوعة بدت وكأنها آذان أرانب.

سخيفة جدًّا.

كنتُ أفكر في ذلك وأنا أتجه إلى شباك تذاكر المحطة.

وكأني دخلتُ إلى قِدْر يغلي وقد تفجرت الأصوات المتحمسة من حولي.

– إنهم إسكوتلاند يارد بالتأكيد، فالمحققون يرتدون الملابس المدنية.

– سمعتُ أنهم أرسلوا «شيرلوك هولمز» أيضًا.

يا إلهي! توقفت في مكاني لأستمع باهتمام.

– ولكنه لم يأتِ، لقد اعتذر قائلًا لظروفٍ عائلية.

مرَّ المتحدِّثان من جانبي، ولم أستطع سماع باقي حديثهما عن أخي، ولكن كان هناك آخرون يتحدَّثون.

– ابنة عمي هي المساعدة الثانية لخادمة الطابق العلوي في المنزل الكبير...

– يقولون إن الدوقة قد جُنَّت تمامًا.

– وتقول أيضًا...

– والدوق مناسب للزواج الآن...

- في البنك يقولون إنهم ما يزالون ينتظرون طلب الفدية.

- من سيريد هذا الفتى لو لم يكن من أجل فدية؟

آه.. يبدو أن حادثة الاختطاف تلك قد وقعت بالقرب من هنا، بالتأكيد.

وهي تراقب المحققين وهم ينحشرون في عربة خيل جميلة، ثم يتَّجه الخيل ناحية المتنزَّة الأخضر القريب من محطة السكة الحديدية.

من فوق الأشجار ارتفعت الأبراج القوطية الرمادية، التي عرفتُ من الأحاديث حولي أنها عزبة «باسيل ويذر»، ولكن قبل أي شيء يجب عليَّ شراء تذكرة.

ومع ذلك وفقًا للجدول الزمني الكبير المعلق على جدار المحطة؛ فهناك وفرة في القطارات المتجهة إلى لندن. هناك قطار كل ساعة تقريبًا طوال اليوم حتى المساء.

«ابن الدوق اختفى... اقرأ الخبر...».

صرخ بائع الصحف الواقف تحت جدول القطارات.

رغم أنَّني لا أومن بالمصادفات، إلَّا أنني أتساءل كيف أن القَدر قد وضعني هنا في مسرح الجريمة، بينما أخي المحقق العظيم في مكانٍ آخر.

جنحت أفكاري بعيدًا حتى أصبحت جاذبية القصة لا تقاوَم. مُتخلِّية عن محاولتي للوصول لشباك التذاكر؛ فقد ابتعتُ الصحيفة بدلًا من ذلك.

الفصل التاسع

في مقهًى بجوار محطة قطارات بلفدير جلست أمام طاولة جانبية مواجهة للحائط حتى أستطيع رفع غطاء وجهي.

احتجتُ أن أفعل ذلك لسببين؛ لأتناول فطوري، ولأتأمَّل صورة «ڤيسكونت تويكسبيري من باسيلويذر».

كانت تحتل صورته نصف الصفحة الأولى من الصحيفة، صورة رسمية مصوَّرة في استوديو أظهرت الصبيَّ مُرتديًّا المخمل المزخرف.

يا إله السماوات.

تمنَّيتُ ألَّا يكون مجبرًا على ارتداء تلك الملابس كل يوم، ولكن أي شيء آخر يمكن أن يرتديه بشعرٍ منساب مثل ذلك؛ طويل، ومتموِّج جرَّاء استخدام بكرات شعر بالتأكيد، يُغطي كتفَيه. كل الشواهد تؤكد أن والدته قد وقعت في حُبِّ ذلك الكتاب اللعين (اللورد الصغير فونت ليروي)، فذلك الكتاب اللعين مسئول عن عذاب جيلٍ كامل من أبناء النبلاء، من وُلدوا في قمة شهرة موضة (فونت ليروي).

كان اللورد الصغير يرتدي خُفَّين جلديين، وجوارب بيضاء، وبنطالًا مخمليًّا ذا ركبة مخملية سوداء، مع أقواس ستان في كلا الجانبين، ووشاحًا من الستان يظهر تحت سترة سوداء مخملية تحتها ياقةٌ بيضاء.

كان يحدِّق إلى الكاميرا دون أي تعبيرٍ على وجهه، ولكن خُيِّل لي أني أرى آثار تصلُّبٍ حول فكِّه.

وريث الدوق الصغير مفقود بشكل مروع

صرخ العنوان بتلك الكلمات.

أمدُّ يدي لقطعة الكعك الثانية، وأنا أقرأ:

في مشهد مُثير للقلق صباح يوم الأربعاء في عزبه٠٠«باسيلويذر» موطن أجداد دوقات «بسيل ويذر»، بالقُرب من بلده٠٠«بلفدير» المزدهره٠٠لاحظ واحد من البُستانيين أنَّ أحد الأبواب لغرفه٠٠ البلياردو قد اقتُحِم ليُنبِّه عامِلي المنزل في الحال ويكتشفوا أنَّ قفل الباب الداخلي للغرفه٠٠ قد كُسِرَ، وقد ظهرت على الخشب آثار سكين، قلقِين من كونها سرقه٠٠؛ فقد تفحص الخدم مخزن الفضيَّات ليجدوا أنَّ كل شيء في مكانه، وحتى الأطباق والشمعدانات في غرفه٠٠ الطعام لم يمَسَّهما أحد، حتى المحتويات القيمه جدًّا في غرفه٠٠ الرسم أو المعرض أو المكتبه٠٠ أو أي مكانٍ آخر في العزبه٠٠ الواسعه٠٠ لم يُسرَق أي شيء منهم، ولم يكن هناك أي آثار لأبوابٍ مقتحمه٠٠ . لم يكن حتى ذهبت خادمات الدور العلوي حاملاتٍ أباريق المياه الساخنه٠٠ ، لغرف عائلة الدوق، أن وجدوا باب غرفه٠٠ «فيسكونت تويكسبيري» مركيز بسيل ويذر مفتوحًا على مصراعيه، والأثاث المتبعثر في

الغرفه.. يحمل شهاده.. صامته.. على صراعٍ يائس، ولم يكن هناك أثر لشخصه النبيل.

الفيسكونت وريث لورد باسيلويذر وابنه الوحيد والبالِغ اثني عشر عامًا فقط.

- اثني عشر عامًا؟!

قلتها بصوتٍ عالٍ متعجبة. جاء صوت المضيفة من خلفي: ماذا هناك يا سيدتي؟

في سرعة خفضتُ الصحيفة من يدي وقلت: آه.. لا شيء.

وضعت الصحيفة على الطاولة، وأنزلت الغطاء على وجهي.

«اعتقدتُ أنه أصغر. أصغر بكثير. بتلك الخصلات الملتوية، وبذلته المختارة من كتاب حكاياتٍ ظننتُه أصغر بكثير. اثنا عشر عامًا! يجب أن يرتدي هذا الصبي سترةً صوفية، وربطة عنق وقصة شعر لائقة رجولية.

انقطعت أفكاري فجأةً وقد استوعبتُ أن تلك الأفكار كانت مشابهة تمامًا لأفكار أخي «شيرلوك هولمز» حين قابلني.

- آه تقصدين اللورد تويكسبيري المسكين.

نعم، لقد أبقتْه والدته كطفل. يقال إنها تموت حزنًا. يا له من أمر حزين.

دفعتُ كرسيي للخلف، وتركت نصف بينس على الطاولة، وخرجت من المقهى، وبعد أن تركت حقيبة السفر في أمانات المحطة، مشيت ناحية متنزَّه «باسيلويذر».

سيكون ذلك أفضل بكثيرٍ من البحث عن الحصى اللامع وأعشاش الطيور. شيء ذو قيمة حقيقية كان يجب العثور عليه، وأنا أردتُ أن أعثر عليه، وآمنتُ ربما أنه يمكنني فعل ذلك.

عرفت أين يمكن أن يكون اللودر تويكسبيري موجودًا، فقط عرفت... برغم أنني لم أملك أيَّ طريقة لإثبات ذلك، ولكن طوال طريقي على طول خط الأشجار كنت في نوعٍ من الغيبوبة، في خيالي المكان الذي لا بدَّ وأنه ذهب إليه.

كانت البوابات الأمامية مفتوحة، ولكن عند البوابة الثانية أوقفني حارس المنزل. فقد كان واجبه أن يُبقي الفضوليِّين، ومُراسلي الصحف بعيدًا، وأشباههم.

سألني: ما اسمك يا سيدتي؟

قلت دون تفكير: إينولا هولمز.

على الفور شعرت بغبائي الشديد، أردتُ أن أموت في التوِّ واللحظة. حين هربتُ كنت قد اخترت لنفسي اسمًا جديدًا «إيفي ميشيل»، إيفي يعني بالإنجليزية «لبلاب» الذي كان يُمثل لأمي الإخلاص، و«ميشيل» كان شفرة اخترعتها حيث لو أخذت كلمة هولمز باللغة الإنجليزية وقسَّمتُها إلى جزأين «هول» و«ميس»، ثم عكستهما؛ «ميس هول»، ثم نطقتهما نفس النطق الإنجليزي إذا كانا في مكانهما الصحيح؛ فتحصل على «ميشيل».

كان سيكون شخصًا نادرًا جدًّا من يتمكن من ربطي بأي شخصٍ آخر في إنجلترا.

«هل أنتِ قريبة عائلة «ميشيلز» القاطنين بـ«توترينج هيلز؟»».

كان من المفترض أن يتساءل الجميع هذا، كان اختياري لـ«إيفي ميشيل» بارعًا جدًّا، ولكنني كالحمقاء أخبرتُ حارس المنزل «إينولا هولمز».

من تعبيرات وجهه الخالية تمامًا؛ فإنَّ الاسم لم يَعنِ أيَّ شيء بالنسبة له، ولكن إذا جاء أي مُتقفي أثر، وبدأ في توجيه الأسئلة: وما عملك هنا يا سيدة هولمز؟

سألني الرجل.

حيث إنني كنت حمقاء، فقد قررتُ أن أستغلَّ ما يمكن استغلاله، فقلت:

– حيث إن السيد شيرلوك هولمز لم يستطع أن يأتي بنفسه، فقد طلب منِّي أن آتي لأُلقي نظرة.

انعقد حاجبا الحارس وهو يسأل: هل تقربين للمُحقق يا سيدتي؟

– بالتأكيد.

أجبتُ بلهجة نهائية، وتحركت متقدِّمة إلى داخل متنزَّه «بسيل ويذر» كانت العزبة ماثلة أمامي، في صينية في نهاية الطريق، كانت المساحة كافية لتحوي عشرة منازل مثل منزلنا في «فرنديل»، ولكنني لم أقترب من السلالم الرخامية،

ولا العمدان ولا الأبواب. لم يكن اهتمامي مُنصبًّا على المنزل ولا الحدائق الرسمية حوله، المليئة بالزهور المنمَّقة.

أَحيد عن الطريق الخاص، مشيتُ عبر ساحة من العشب باتجاه متنزَّه «باسيلويذر»، والغابات المحيطة بالمباني. لم تكن غاباتٍ بالضبط بل أقرب إلى حدائق واسعة. أخطو تحت أشجار مُتوقِّعة أن أجد بعض الأجمة أو بقاعًا من الطحالب وشجيرات عشبية، ولكني وجدتُ عوضًا عن ذلك عشبًا ناعمًا مُهذبًا بما يكفي حتى أنه يمكنك أن تلعب عليه الكروكيت.

مشيت على طول الطريق مُكتشفة عدم وجود أي كهوف صغيرة أو تجاويف، لقد كانت عزبة « بسيل ويذر» وأراضيها مسطحة تمامًا دون أي تضاريس مميزة.

فكرتُ وأنا أمرُّ بين العشب مرة أخرى أن ذلك مُحبِط.

قد يكون الاحتمال الوحيد...

- سيدة هولمز!

جاء صوت صراخ عال، التفتُّ لأجد الأمَّ المضطربة. هُرعت الدوقة ناحيتي وقد تعرفتُ عليها من فستانها الباهظ الذي يحتوي على تضفيراتٍ ثقيلة على ردائها الفضي وتنُّورتها المصنوعة من الستان الرمادي الوردي. ولكن لم يكن هناك أي آثار على ثرائها يظهر في عيونها الدامعة ووجهها المشدوه. لم تكن

هناك أي آثار على أرستقراطيتها وهي تركض بين الأشجار كبجعةٍ جريحة وخصلات شعرها البيضاء تنسدِل من تحت القبعة لتتطاير على كتفَيها.

من خلفها كان هناك زوج من الخادمات يبدو عليهما الخوف ترتدِيان المآزر وقُبعات الدانتيل البيضاء. ولا بدَّ أنهما خرجتا مباشرة من المنزل خلفها. كانتا تصيحان خلفها: يا سُمُوَّك.. يا سموَّك نرجوكِ، عودي للداخل، دَعينا نُعِدُّ لك كوبًا من الشاي، نرجوك، إنها ستُمطر.

ولكن الدوقة لم يبدُ عليها أنها سمعتهما.

- سيدة هولمز!

شعرتُ بيديها المرتعِشتَين وهي تُمسك بي: أنت امرأة ولديك قلب امرأة، أخبريني مَن باستطاعته أن يفعل شيئًا شريرًا كهذا؟ أين يمكن أن يكون تويكي؟ ما الذي يجب عليَّ فعله؟

مُمسكة بكلتا يديها المرتعشتَين. كنت شاكرةً لأن غطاء وجهي الثقيل قد أخفى وجهي المفزوع، وشاكرةً أن القفازَين قد فصلا بين جسدي الدافئ وجسدها البارد.

خرجت منِّي الكلمات غير مُرتبة: فلتتحلَّي بالشجاعة، إممم يا سُموَّك، واا إممم فلتتمسَّكي بالأمل.

ثم تمكنتُ من كلماتي لأسأل: دعيني أسألك هل كان هناك أي مكان (بالطريقة التي كانت تتعامل معه بها فربما كانت تتجسَّس عليه، أو لدَيها

حدْس بشأنه) مكان في الأراضي من حولنا حيث كان يذهب ابنك ليكون وحيدًا؟

- ليكون وحيدًا؟!

رفَّت بجفونها المنتفخة دون أن تستوعِب ثم سألتْ مرة أخرى: ما الذي تعنينه بذلك؟

- هُراء محض.

أعلن صوت غليظ أتى من خلفي:

- تلك الأرملة لا تعرِف أيَّ شيء، سوف أجد ولدَك، طفلك المفقود يا سموَّ الدوقة.

التفتُّ لأجد أكثر امرأة استثنائية رأيتها في حياتي، كانت أطول منِّي، وأكثر ضخامة، وصُدمت أن وجدتُها دون قبعة. كان شعرها المجعَّد يلتفُّ حول رأسها من الكتف للكتف كانت تبدو كمصباحٍ أبيض وشعرها غطاء مصباح الأحمر، لم يكن كستنائيًّا أو بُنيًّا بل كان أحمر حقيقيًّا، يكاد يكون قرمزيًّا لون شقائق النعمان. بينما عيناها كانتا تتوهَّجان من بين وجهها المغطَّى بالمساحيق كقلب الزهرة الأسود.

كان شعرها ووجهها يجذبان الاهتمام كثيرًا حتى أني لم ألاحظ ملابسها.

كان لديَّ فقط انطباع أنها ترتدي شيئًا قطنيًّا، ربما من مِصر أو من الهند، مرسومًا عليه أنماط بربرية قرمزية تلتفُّ حول جسدها الضخم.

شهقتِ الدوقة قائلة: مدام ليليا، لقد أتيت، لقد توسَّلتُ إليك وأتيتِ يا مدام ليليا.

مدام ماذا؟ يبدو أنها وسيطة روحانية، استنتجتُ ذلك.

كان ذلك دورًا يحظى بتفوُّقٍ نادر للجنس النسائي عن الجنس الرجالي بكثير.

وتحظى النساء فيه باحترامٍ أكثر. ولكنَّ شخصياتٍ كهؤلاء الدجَّالين (كما كانت أمي تُطلق عليهم) كانوا يستحضِرون أرواح الموتى، ومن المؤكد أنَّ الدوقة لم تكن لتتمنَّى أن يكون ولدُها قد مات. فما الذي تفعله تلك السيدة الضخمة؟

- مدام «ليليا سيبيل دي بابافر» خبيرة إسقاط نجمي «بريدتوريان» في خدمتك.

ادَّعت المرأة وأكملت: أيًّا كان الضائع فبالتأكيد يُمكنني أن أجده، فإنَّ الأرواح تذهب في كل مكان، وتعرِف كلَّ شيء وترى كل شيء، وهم أصدقائي.

كانت الدوقة الآن تُمسك بيدَي المرأة التي ترتدي فيهما قفازَين أصفرَين بينما أنا كنتُ أقف فاغرة الفم مِثلي مثل تلكما الخادمتَين المسكينتين المصدومتين، ولكن في حالتي لم أكن مصدومةً من مظهر المرأة الغريب، ولا حديثها عن الأرواح، بينما أردتُ أن أومن أنَّ بعد زوال جسدي المادي سيبقى وعيي

بشكلٍ ما، ولكن سيكون لوعيي (روحي) أشياء أهمُّ تفعلها على أن أحرك الأثاث أو أدقَّ على جرسٍ ما، أو أهزَّ الموائد.

ولم تكن كلمات مثل الإسقاط النجمي تُبهرني، ولكن من كل ما قالته مدام «ليليا سيبيل دي بابافر» كلمة واحدة ثبَّتتْني في مكاني غير قادرة على النطق، تلك الكلمة كانت «بريدتوريان». كانت تأتي من اللاتيتينة «بيردتوس» بمعنى «ضائع». فـ«بريدتوريان» تعني الشخص الذي يتنبَّأ بمكان الضائعين. ولكن كيف تجرؤ، بكل ترَّهاتها عن الأرواح، كيف يمكنها أن تُلقب نفسها بهذا اللقب النبيل؟ العارفة بمكان المفقودين، حكيمة الضائعين، واجدة الضائعين. لقد كان ذلك قدَري ودعوتي، أنا الـ«بريدتوريان»، أو سأكون، ليس بالإسقاط النجمي، بل سأكون باحثةً محترفة عن الضائعين. أول محترفة تستخدِم المنطق والبحث العلمي لإيجاد الضائعين في العالَم، كل ذلك جاءني كإلهامٍ في نبضة قلب. عرفت ذلك كحقيقةٍ واقعة تمامًا كما أعرف أن اسمي هو «هولمز».

بالكاد لاحظتُ كيف أنَّ الخادمات قد اصطحبن مدام «ليليا» والدوقة إلى البيت. ربما من أجل شُرب الشاي، وربما من أجل جلسة تحضير. لم أهتم، اتجَّهت مرة أخرى للغابات التي طوَّقتْ مُتنزَّه «بسيل ويذر»، مشيت بدون هدف، غافلة عن الرذاذ الذي بدأ في التساقط.

كانت أفكاري الحماسية تتسارع في ذهني، وأبني على مُخططي الأصلي في العثور على أمي.

كانت خُطتي بسيطة، ما إن أصِل إلى لندن سأقوم بطلب سيارة أجرة وأطلب من السائق أن يأخذني إلى فندقٍ محترم لأتناول العشاء وأحظى بليلةٍ من النوم الجيد.

كنتُ سأبقى في الفندق حتى أجد مسكنًا مناسبًا، وكنت سأفتح حسابًا بنكيًّا، لا، في البدء كنتُ سأذهب لشارع «فليت» لأضع إعلانًا مُشفَّرًا في المطبوعات التي أعرف أنَّ أمي تقرؤها. في أي مكانٍ كانت بالتأكيد ستتابع قراءتها لجرائدها المفضلة.

وسأنتظر حتى يأتي ردُّ أمي، فقط سأنتظر.

سيفي ذلك بالغرَض إذ كنت أحتاج دائمًا أن أطمئِنَ نفسي أن أمي ما تزال حية وبخير. على أي حال، الانتظار هو كل ما أستطيع فعله. أو هذا ما اعتقدته، ولكن الآن.. الآن وجدت دعوتي في الحياة، أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك بكثير، دعْ أخي شيرلوك ليكون المحقِّق الخاص الوحيد في العالم كما يُحب، سأكون أنا واجدة الضائعين الخاصة الوحيدة في العالم، وبذلك يُمكنني أن أقترن بالنساء المحترفات اللاتي يلتقين في غرف الشاي الخاصة بهن في أرجاء لندن (نساء قد يكنَّ يعرفنَ أمي)، وبمُحقِّقي سكوتلاند يارد (حيث قدَّم شيرلوك بلاغًا بالفعل بخصوص أمي)، وبأشخاصٍ آخرين ذوي مقام رفيع، وربما أيضًا أشخاص آخرين سيئي السمعة.

أشخاص يملكون المعلومات، وربما يبيعونها أيضًا. آه الاحتمالات، لقد وُلدتُ لأكون واجدةً للضائعين. باحثة عن المفقودين والأحباء، و...

ويجِب عليَّ أن أتوقف عن الغرق في خيالاتي، وأن أبدأ في العمل.

الآن الاحتمال الوحيد كما كنتُ أفكر من قبلِ أن تتمَّ مقاطعتي أنه يمكن أن يكون شجرة.

أسترجع خطواتي خلال الأراضي المملَّة، وفي غابات متنزه «باسيلويذر» أركز الآن على البحث عن شجرة بذاتها. سوف تقع بعيدًا عن منزل «بسيل ويذر» وحديقته المنمَّقة بقليل، ولن تكون قريبةً جدًّا من حدود المتنزَّه، ولكن في منتصف الغابة؛ حيث لا يمكن لأعين البالغين أن تتجسَّس، ومثل ملاذي تحت الصفصافة المعلَّقة في «فرنديل» ولا بدَّ أن يكون ذلك المِخبأ مُميزًا بشكلٍ ما حتى يصير جديرًا بأن يكون مخبًا.

كانت الأمطار الخفيفة قد توقَّفت، والشمس قد بزغت، كنت قد اقتربتُ من أن أدور دائرةً كاملة في أنحاء العزبة قبل أن أجد المكان المنشود. لم تكن شجرةً واحدة في الحقيقة، ولكن أربعًا نمتْ من جذرٍ واحد، أربع شتلات من القيقب زُرِعْن في المكان نفسه. وكل ما تبقَّى كان أربعَة جذوع قائمة بزوايا حادة صانعةً مربَّعًا مثاليًّا فيما بينها.

واضعة قدَمًا واحدة على غُصنٍ متدلٍّ دفعتُ بنفسي متأرجحة لأعلى ربما لثلاثة أقدام فوق الأرض، وبداخل الرقم ٧ الذي صنعتْهُ الجذوع كان هناك في

المنتصف محور مِثالي بين أوراق الشجر، والأكثر جمالًا أنَّ أحدهم، على الأغلب اللورد الصغير «تويكسبيري»، كان هنا.

كان قد دقَّ مسمارًا ضخمًا، في الواقع كان واحدًا من مسامير السكك الحديدية الضخمة في جذع واحدةٍ من الأشجار بالداخل.

لم يكن لأحدٍ مارٍّ بجوار تلك الأشجار أن يلاحظ، ولكن كان هناك بروز قوي لتعليق شيء ما ربما!

لا، فمسمار أصغر بكثيرٍ كان يمكن أن يُستخدَم لغرض التعليق، عرفت أنَّ ذلك المسمار الضخم لا بدَّ أنه لصناعة موضع قدَم للتسلُّق، يا له من يومٍ مجيد، أخيرًا فرصة لتسلُّق الأشجار مرةً أخرى بعد عدة أسابيع من التصرُّف كسيدة أرستقراطية.

ولكن يا للتقيُّد، ماذا لو رآني أحدُهم. أرملة محترمة تتسلَّق الشجر؟

نظرتُ من حولي ولم أر أحدًا. فقرَّرتُ أن أخاطر مُغتنمة الفرصة.

تخلَّصتُ من قبعتي، وغطاءِ الوجه، وأخفيتُهما تحت بعض أوراق الشجر، ورفعت تنورتي فوق رُكبتي مؤمِّنة إيَّاها ببعض الدبابيس التي أخذتها من القبعة، ثم وضعت قدمي على المسمار الضخم المعلق، وصعدت. كانت الأغصان تخترق شعري مُتقصِّفة بداخله ولكني لم أهتم. باستثناء الوخزات المعتادة لوجهي، لقد كان الأمر سهلًا كصعود سُلَّم. كان هذا شيئًا جيدًا حيث إنَّ كل أطرافي كانت مُلتهبة وتُعلن اعتراضها مع كل حركة.

ولكن لورد «تويكسبيري» لحُسن الحظ كان قد غرَس مسمارًا من مسامير السكك الحديدية في كل مكانٍ لم يكن فيه غُصن يصلُح كموطئٍ لقدَم.

ذلك الفيسكونت الصغير كان فتًى ذكيًا. لا شكَّ في أنه قد حصل على تلك المسامير من قضبان السكك الحديدية التي تمرُّ بجوار عزبة أبيه. أرجو ألا يكون هناك حوادث قد حدثت للقطارات بسبب فعلتِه تلك.

بعد أن تسلَّقتُ عشرين قدمًا أو أكثر توقَّفت لأرى إلى أين أذهب، رفعتُ رأسي لأنظُر لأعلى، ويا إله السماوات. لقد بنى منصَّةً داخل الشجرة. هيكلًا غير مَرئي من الأرض.

من موقعي هذا كان يُمكنني تقدير المجهود الذي بذلَه فيها. إطار مُربَّع مصنوع من قصاصات الخشب غير المعالج يقع بين شجيرات القيقب الأربع، وأعمدة تدعمها ما بين الجذوع مُثبَّتة في مكانها على أطراف الشجرة، أو أُمِّنت بسلك مربوط حول الزوايا. وُضِعت الألواح فوق العوارض، لتشكل أرضية من نوعٍ ما. تخيلتُه وهو يجمع كل ذلك من الإسطبلات، أو من المخازن، أو يعلم الله من أين أيضًا، ثم يجرُّها جرًّا إلى هنا، ربما اضطرَّ لفعل ذلك في ظلام الليل، وبعدَها يرفعها على الأشجار بحبالٍ حتى يضعها في مكانها.

وطوال ذلك الوقت أمُّه تضع مشابك الشعر في شعره، وتُلبسه الستان والمخمل والدانتيل. فلترحَمْنا السماء.

في ركنٍ من بيت الشجر ذلك كان قد ترك فتحةً يمكنه الدخول منها، ما إن أدخلت رأسي لبيت الشجرة الخاص به حتى ازداد احترامي للورد الصغير، كان قد علّق مُربعًا من القماش، ربما يكون غطاء عربة مُستخدمًا إيّاه كسقفٍ لبيته.

وفي الأركان كان قد وضع أغطية سروج خيل في الأغلب قد «استعارها» من الإسطبل، كان قد طواها لتُستخدَم كوسائد للجلوس.

في الجذوع الأربعة للأشجار كان قد غرس مسامير علّق منها حلقات حبالٍ معقودة وصورَ قوارب وصافرة معدنية، وأشياء أخرى مثيرة للاهتمام.

زحفتُ أقرَبَ لأُلقي نظرة، ولكن على الفور جذب انتباهي منظر صادم في منتصف الأرضية.

شظايا وقصاصات ممزَّقة احتجتُ للحظة كي أتعرَّف على ماهيتها.

مخمل أسود، شريطة بيضاء، ستان أزرق فاتح، بقايا ما يبدو أنها كانت ملابس. وفوق تلك الأشياء كان هناك شعر طويل ملفوف ذهبي.

لا بدَّ أنه قد جزَّ شعره حتى الجذور بعد أن مزَّق ثيابه الغالية. فيسكونت تويكسبيري قد دخل هنا بمحض إرادته، لم يكن هناك خاطف، فلا خاطف يستطيع أن يحمِله حتى هنا أو يعرِف هذا المكان، ومن مرأى الأشياء فإنَّ فيسكونت تويكسبيري قد ترك مَخبأه كما جاء بإرادته الحُرة، ولكنه حين خرج لم يكن «فيسكونت تويكسبيري» مركيز «باسيلويذر».

على الأرض مرة أخرى وقد أسدلتُ تنُّورتي للأسفل حيث تنتمي، وأعدت قبعتي السوداء لتغطي على شعري غير المهذَّب، وغطاء الوجه أنزلته لإخفاء وجهي. مشيتُ كالعمياء لا أعرف ما الذي سأفعله.

حول واحدٍ من أصابعي المغطاة بالقفازات عقدت خصلة من الشعر الأصفر المموَّج الطويل، تركتُ الباقي حيث وجدته، مُتخيلة أنَّ الطيور البرية سوف تأخُذ منه لتصنع به أعشاشها.

فكرتُ في الرسالة الغاضبة الصامتة التي تركها الفتى الهارب، في ملاذه السري. فكرتُ في الدموع التي رأيتُها في عيون أمِّه، يا للسيدة المسكينة! ولكن في نفس الوقت يا للفتى المسكين! أُجبر على ارتداء المخمل والدانتيل، كان ذلك بنفس سوء ارتداء المشدِّ الحديدي، لم تكن مُصادفة أني فكرتُ في نفسي.. أنا إينولا الهاربة مثل لورد تويكسبيري الصغير باستثناء أنه في الأغلب كان لديه رجاحة العقل ليُغير اسمه، وليس مِثلي الحمقاء التي أتت هنا وعرَّفت نفسها باسم «إينولا هولمز» واضعةً نفسي في خطر.

أحتاج لمهرَب. ولكن بالرغم من ذلك أحتاج لأطمئِنَ الدوقة التعيسة. لا لا، يجِب أن أترك متنزَّه بسيل ويذر في أسرع وقتٍ ممكن قبل أن...

- سيدة هولمز؟

تجمَّدْت.. وجدتُ نفسي على طريق العربات المقابل لمنزل « باسيلويذر» تمامًا، غير واثقة إن وجَب عليَّ أن أتقدَّم أو أتقهقر حين جاء صوت يُنادني من أعلى:

- سيدة هولمز!

مُخفيةً خصلة الشعر في راحة يدي استدرتُ لأرى رجلًا يرتدي عباءة سفرٍ يُسرِع الخطوات على السلالم الرخامية باتجاهي.

كان واحدًا من المحقِّقين القادمين من لندن.

- أستميحك عذرًا، آااا.. آاااا لافتراضي من أنتِ.

قالها وهو يقِف أمامي ويُكمِل: ولكن الحارس أبلغني أنك هنا، وكنتُ أتساءل...

كان صغيرًا يُشبه ابن عِرس، لم يكن من النوع ذي العضلات المفتولة الذي تتوقَّع رؤيته مع العامِلين في الشرطة، ولكنه يثير الخوف بالطريقة التي كانت عينُه التي تُشبه حبَّات الخرَز تتفحَّصني، كخنفسة سوداء لامعة تحاول أن تزحف لتخترق حجاب وجهي.

بصوتٍ عالي النبرة أكمل: أنا أحد معارف السيد شيرلوك هولمز، اسمي هو «ليستراد».

لم أعرِض يدي للمصافحة وأنا أقول: كيف حالك؟

- بخير حال شكرًا لك. عليَّ قول إنَّ لقاءك لهوَ مفاجأة سارَّة.

كانت نبرتُه نبرة من يحاول أن يستشفَّ معلومات. كان يعرِف أن اسمي هو «إينولا هولمز»، يمكنه أن يرى أنني أرملة، ولذلك فقط ناداني بلقب سيدة، ولكنه لا بدَّ أنه يتساءل إذا كنتُ قريبةً لعائلة «هولمز» بالزَّواج فقط؛ لماذا يُرسلني شيرلوك بدلًا عنه.

- أ.. عليَّ أن أقول إنَّ هولمز لم يذكُرْك أبدًا.

- بالطبع.

قلتُها وأنا أهزُّ رأسي بتهذيبٍ وأُكْملُ: وهل سبق لك التحدُّث بخصوص عائلتك مع هولمز؟

- لا!. آاا... أعني لم تكن هناك فرصة.

مُحتفظة بنبرتي التي تمنَّيتُ أن تكون لا تُعبر عن أي مشاعر: بالتأكيد لا.

ولكن أفكاري كانت تُزقزِق مثل العصافير. ذلك الفضولي سوف يُخبر «شيرلوك» أنَّنا قد التقَينا، وفي أي ظروفٍ في أول فرصة. لا، الأسوأ من ذلك بما أنه مُحقِّق في «سكوتلاند يارد» ففي أي دقيقةٍ قد يتلقَّى برقيةً بشأني. يجِب عليَّ الهروب قبل أن يحدُث ذلك. فهو يملك شكوكًا نحوي بالفعل، عليَّ أن أشتِّتَ المفتش «ليستراد» حتى يتوقَّف عن التدقيق بي.

أبسُط يدي لأظهر خصلة الشعر لأُريه إيَّاها.

وأقول في لهجةٍ قيادية تُحاكي لهجة أخي الشهيرة: بخصوص لورد «تويكسبيري»، لم يُخطف.

أشَحْتُ بيدي لأوقف محاولة المفتِّش على الاعتراض، وأكملت: لقد تولَّى الأمر بنفسه، وهرَب. كنتَ ستفعل المِثل لو ألبسوك مثل دُمية صغيرة في بدلة مخملية. لقد أراد الذهاب للبحر في قارب، سفينة أعني.

في مخبأ الفيسكونت الصغير كنتُ قد رأيتُ صورًا لسُفن بخارية، ومقصوصات عن سفن، وأشياء أخرى لها علاقة بالسفن البحرية.

– بالتحديد كان يُحب تلك السفينة الضخمة التي تُشبه وحشًا؛ وكأنها قطيع من الماشية بأشرِعة، وهناك عجلات ومِجداف على الجانبَين.. ما كان اسمُها؟ تلك التي أرسَتِ الكابل عبر الأطلسي.

ولكنَّ عيني المفتش «ليستراد» لم تتحرَّك من فوق خصلة الشعر في يدي.

تكلَّم كالمعتوه: ماذا...؟ أين...؟ كيف استنتجْتِ...؟

– الشرق الأعظم.

مُتذكرة أخيرًا اسم أكبر سفينة في العالم.

– سوف تجد لورد «تويكسبيري» في المرفأ على أرصفة لندن البحرية في أغلب الظنِّ يُحاول أن يلتحِق كعاملٍ بحري أو صبي كابينة؛ فقد كان يتدرَّب على ربط عُقَد البحارة، وتخلَّص من شعره تمامًا، ولا بدَّ أنه قد حصل على بعض ملابس العامة بطريقةٍ ما. ربما من واحدٍ من فتيان الإسطبل. ربما ترغب

في التحقيق معه. بعد تحوُّلٍ كذلك، أتخيَّل ألَّا أحد في المحطة سيتعرَّف عليه لو قرَّر أن يستخدِم القطار.

– ولكن الباب المكسور؟ والقفل المحطم؟

– لقد فعل ذلك حتى تبحثوا عن خاطفٍ بدلًا من البحث عن هارب، ليُقلِق أمَّه.

كانت تلك الفكرة ما جعلتني لا أشعُر بالسوء وأنا أُخبره ما أعرِف.

أُعطِيه خصلة الشعر وأنا أقول: ربما يجِب عليك أن تُعطِ سموَّها هذه. إلَّا أنني لا أعرف حقًّا إذا كان سيُساعدها ذلك، أم سيجعلها تشعُر بسوءٍ أكثر.

مُحدقًا إليَّ كان المفتش ليستراد يبدو وكأنه بالكاد يعرِف ما الذي يفعله ويدُه اليمنى ترتفع ليأخذ منِّي الخصلة.

– ولكن أين وجدتِ تلك؟

كانت يده الأخرى ترتفع وكأنه يُحاول أن يجذِبَني من كوعي إلى منزل «باسيلويذر».

أخذتُ خطوة للخلف بعيدًا عن يده لأدرك وجود طرفٍ ثالث في مُحادثتنا، على قمَّة السلالم الرخامية وسط الدرابزينات والأعمدة اليونانية؛ كانت مدام «ليليا» تشاهد وتسمع.

خفضتُ صوتي لأُجيب المفتش ليستراد: في أول دورٍ من شجرة القيقب ذات الأربعة جذور.

وأشرتُ للاتجاه، وبينما هو يستدير لينظُر، تحركتُ بعيدًا بسرعةٍ أكبر من السرعة المناسبة التي يجِب على سيدة أرستقراطية أن تتحرَّك بها مُتجهة ناحية البوابة.

- سيدة هولمز؟

صاح من خلفي دون أن أعدِّل من سرعة مشيتي، أو حتى ألتفِتَ لأنظر للخلف، رفعتُ يدًا واحدة بتلويحةٍ مهذَّبة تُماثل تلك التلويحة التي قد لوَّح بها أخي بعصاه ناحيتي من قبل محاولةً ألا أنطلق راكضة، وأكملتُ مَشيي.

حين عبرتُ البوابات أطلقتُ زفرة حبيسة.

لم أكن قد ركبت قطارًا من قبل، واستغربتُ حين وجدت أن الدرجة الثانية كانت مقسَّمة حيث يجلس أربعة أشخاص في مواجهة بعضهم بعضا على كراسي جلدية، وكما في عربة الخيل.

كنت أتخيَّل شيئًا مفتوحًا أكثر، كالحافلة العمومية، ولم تكن كذلك.

اقتادني الكمسري في المِمشى الضيق، فتح لي بابًا، وفجأة وجدت نفسي جالسة مع ثلاثة غرباء وقد كان كرسيي يواجِهُ مؤخِّرة القطار.

وبعد لحظاتٍ شعرتُ بنفسي أُحمَل ببطء في البداية، ولكن بتسارُع مُستمر للخلف باتجاه لندن.

كانت تلك الوضعية مُلائمة جدًّا حيث إن وجود المفتش ليستراد جعلني غير قادرة على رؤية القادم؛ حيث إنه تحدَّث مع أرملةٍ مغفلة اسمها «إينولا هولمز»، وسوف يُخبر أخي شيرلوك؛ أحتاج لأن أتخلى عن تنكُّري الممتاز.

بالتأكيد احتجتُ لأن أُعيد النظر في وضعي بالكامل.

مُتنهِّدة وأنا أجلس على حافة مقعدي بسبب حشو الأرداف الذي أرتديه، هيأتُ نفسي لتقدُّمي للوراء، كان القطار يتأرجح ويتمايل بينما يسير بسرعةٍ أسرع مرَّتَين على الأقل من سرعة درَّاجتي وهي تنزل من فوق تل.

كانت الأشجار والمباني تجري سريعًا بجوار النافذة حتى أني اضطررتُ إلى تجنُّب النظر.

شعرت بالغثيان قليلًا لأكثر من سبب؛ فقد كانت خُطَّتي أن آخُذ سيارة أجرة وأذهب لفندق، وأبحث عن مكان للإيجار، وأنتظر في هدوءٍ قد لا يمكن تنفيذها الآن. فقد تمَّ التعرُّف عليّ، وتمَّت رؤيتي، فأي من المحقِّق ليستراد أو أخي شيرلوك سيتعقَّب أرملة شابة عبر «بلفدير» وسيعرفون أني أخذت قطار المساء السريع إلى المدينة.

وداعًا لتشتيت أخويّ بفكرة أني في «ويلز»، ولكن ربما هما لا يعرفان أنَّ حالتي المادية جيدة، ولكن سيعرفلن على أي حالٍ أنني ذهبتُ إلى لندن، ولا يوجَد شيء يُمكنني فعله بخصوص ذلك. إلَّا أنه ربما أرحل من لندن بمجرد وصولي. آخُذ القطار التالي لأي مكان.

ولكن بالتأكيد فإنَّ أخي سيُحقق مع بائعي التذاكر، والآن. فإنَّ ثوبي الأسود يُميزني، فلو عرف شيرلوك هولمز أنَّ أرملة قد صعدت على قطار إلى «هاوند ستون» ربما، أو « روكينجهام» أو « بودينجورث» فسوف يُحقق، وبالتأكيد سيكون من الأسهل أن يجِدَني في «هاوند ستون» أو «روكينج هام» أو «بودينج ورث» أو أي مكانٍ آخَر غير «لندن».

والأكثر من ذلك أردت أن أذهب إلى «لندن»، ليس وكأني أعتقِد أن أُمي هناك، بالعكس، ولكن سأتمكن أن أجِدها بشكلٍ أفضل من هناك.

وقد حلمتُ دائمًا بلندن؛ القصور، النافورات، الكاتدرائيات، المسارح، الأوبرا، الرجال في البدل الرسمية، والنساء مُزيَّنات بالماس.

وأيضًا وأنا أهتزُّ متجهةً بظهري للمدينة العظيمة أجد ابتسامةً ترتسم على وجهي من تحت حجابي من فكرة أني أختبئ من أخويّ وأنا تحت أنفهم. سأُغير رأيهما بخصوص قُدرة الجمجمة الصغيرة لأختهما الصغيرة. حسنًا إذن.. إلى لندن.

ولكن الظروف تغيَّرت؛ حيث إني لا أستطيع حين أصل إلى المدينة أن آخُذ سيارة أجرة. شيرلوك هولمز سوف يُحقق مع سائقي الأجرة، ولذا سيجِب عليَّ أن أمشي، والليل كان قادمًا، ولكن لا يمكن أن أسمح لنفسي الآن بغرفةٍ في فندق، بالتأكيد سيُحقق أخي في كل الفنادق، سأحتاج إلى أن أمشي مسافةً كبيرة لأبتعِد عن محطة القطار، ولكن لأين أذهب؟

لو دخلتُ شارعًا خاطئًا ربما أجد نفسي في صحبة نوعيةٍ غير لطيفة من الناس.

ربما أواجه نشَّالًا أو... أو... أو ربما قاطع رقاب. يا لها من فكرةٍ غير سارة.

وبينما أفكر في تلك الفكرة أحاول أن أُبعد عيني من المنظر الذي يُصيبني بالدوار خارج النافذة.

اختلستُ نظرة للباب الزجاجي في نهاية المِمر، وكدتُ أصرخ. هناك، ومثل قمر مُكتمل كان هناك وجهٌ كبير يتفحَّص المقصورات، أنفُه يلتصِق بالواجهات الزجاجية، كان الرجل يتفحَّص كلَّ المسافرين، دون أن يتغيَّر التعبير الجامد على وجهه.

ثبَّت نظرته الغامضة عليَّ ثُم تحرك مُكملًا طريقه، ابتلعتُ ريقي، ونظرتُ حولي للركَّاب بجواري لأرى إن كانوا قد أصيبوا بالخوف أيضًا.

يبدو أنهم لم يفعلوا.

في المقعد المجاور لي عامل يرتدي قبعة كان يغطس في مقعده ويتعالى شخيره.

كان حذاؤه الخشِن ذو المقدمة المربعة في منتصف الأرضية. أمامه كان هناك شخص يرتدي بنطالًا منقوشًا وقبعة شِبه رسمية يقرأ الصحيفة باهتمام.

ويبدو من الصفحة التي امتلأت برسومات الفرسان والخيول أنه كان يهتمُّ بحلبة السباق، وبجواره -أمامي مباشرة- جلسَتِ امرأة كبيرة في السن، وكانت تُحدِّق بي بنظرةٍ مبتهجة.

- هل هناك شيء يا بطتي؟

بطتي؟ كانت طريقة مُحادثة غريبة، ولكني لم أُعلق عليها لأسأل: من كان ذلك الرجل؟

- أي رجل يا بطة؟

إما أنها لم ترَه على الإطلاق أو أنه من الطبيعي أنَّ رجلًا ضخمًا أصلع يرتدي قبعة قماشية أن يحدِّق إلى راكبي القطارات وأنا أبدو كحمقاء.

أهزُّ رأسي تاركة الأمر وأنا أتمتم: لا ضرَر إذن. إلا أن قلبي كان يُعلن أني كاذبة.

- تبدين شاحبةً تحت كل ذلك السواد.

أعلنت صديقتي الجديدة. كانت من العامة، وبلا أسنان، وبدلًا من قبعة مناسبة، كانت ترتدي قلنسوة قديمة تُشبه قطعة فِطر كبيرة، وقد ربطتْها بشريطٍ برتقالي تحت ذقنها الخشِن، بدلًا من الفستان كانت ترتدي رداءً من الفرو قد اصلعَّ أكثر من نصفه، وبلوزة كانت أقل من الأبيض، وتنُّورة أرجوانية قديمة قد جُدلت حافتها الباهتة.

حدَّقت إليَّ وكأنها طائر صغير يبحث عن فتات خُبز.

– الفقيد رحل مؤخَّرًا يا بطتي؟

آه.. أرادت أن تعرِف عن زوجي الراحل.

هززتُ رأسي.

– والآن أنتِ ذاهبة إلى لندن؟

هززتُ رأسي.

– إنها نفس القصة القديمة دائمًا. أليس كذلك يا بطة؟

اقتربتْ مني السيدة السوقية العجوز وقالت بأكبر قدرٍ من الشفقة: وجدتِ لنفسك زوجًا وتركك ومات دون أن يترُكَ لك وسيلةً لإطعام ذاتك، والآن تبدين مريضة، ربما هناك طفل في أحشائك؟

يا لها من كلماتٍ قاسية التي استخدمَتْها!

في البداية واجهتُ صعوبة في الفهم فأنا لعمري لم أسمع مثل ذلك الكلام غير المستساغ يُقال بصوتٍ عالٍ أبدًا، وفي مكانٍ عام، وفي وجود رجال (بالرغم من أنه يبدو أنَّ كليهما لم يلاحظ) وجدت نفسي مصدومةً وغير قادرة على النطق، واحمرارٌ نارِيٌّ يُغطي وجهي.

كانت مُعذبتي الودودة قد اعتبرت أنَّ احمرار وجهي تأكيد؛ فهزَّت رأسها واقتربت أكثر: والآن تُفكرين أنه يمكنك أن تجدي عملًا في المدينة. هل ذهبتِ إلى لندن من قبل يا عزيزتي؟

تمكنتُ من هزِّ رأسي أن «لا».

- حسنًا، لا تُعيدي الأخطاء القديمة يا بطتي، مهما وعدك الرجال.

اقتربتْ أكثر وكأنها ستُخبرني بِسرٍّ عظيم، ولكنها لم تخفض صوتها حتى: لو أردت الحصول على بعض البنسات انزعي ثوبًا داخليًّا أو اثنين من تحت فستانك.

شعرتُ أنَّني سأفقد الوعي.

لحُسن الحظ أن العامل قد علا شخيرُه في تلك اللحظة، والرجل الآخر رفع الجريدة ليُغطي وجهه لتُكمِل الشمطاء: لن تفتقديها، العديد من النساء في لندن لا يملكن ملابس داخلية.

أردتُ بشدَّة أن تنتهيَ وأن ينتهي ذلك الموقف، حتى أني خاطرتُ بالنظر من النافذة. منزل بعد منزل مرَّ بجوار الزجاج الآن، ومبانٍ طويلة مُلتصقة وتحوَّل الطوب إلى أحجار.

- خُذي تلك الملابس لملابس « كلاهان» المستعملة في طريق « سينت توكينز»، قبالة شارع «كيبل».

تُكمل الشمطاء بلا هوادة وقد كانت تجلس القرفصاء مُذكِّرة إيَّاي الآن بضفدع أكثر منها بطائرٍ صغير.

- في الجزء الشرقي كما تعلمين، تستطيعين أن تَشقِّي طريقك هناك بجوار المرفأ. وانتبهي، بمجرَّد أن تجدي طريق « ساينت توكينز» لا تذهبي إلى أحد

التجار الآخرين، اذهبي مباشرة إلى «كلاهان» سيُعطيك سعرًا عادلًا مقابل تلك الملابس؛ خاصة لو كانت مصنوعة من الحرير الطبيعي.

الرجل الذي يقرأ الجريدة حرَّكها بصوتٍ عالٍ، وتنحنح بينما أنا أغرس يديَّ في حافة مقعدي.

ابتعدتُ بجسدي عن الشمطاء العجوز للخلف بقدْر استطاعتي بوجود حشو الأرداف الذي أرتديه.

غمغمت: شكرًا.

لم تكن لدي نية لأن أبيع ملابسي الداخلية، ولكن بالرغم من ذلك فإنَّ تلك العجوز الشنيعة قد ساعدتني.

فقد كنتُ أتساءل أين يُمكنني أن أتخلَّص من ملابس الأرملة، أن أحصل على شيءٍ جديد.

بالتأكيد كان لديَّ الكثير من الأموال، لأبتاع أيَّ شيء أحتاجه، لتفصيل أي شيءٍ أحتاجه، ولكن صناعة الملابس تحتاج لوقت، وبالتأكيد فإن أخي سوف يُحقِّق مع محلات الخياطة، وبالتأكيد سوف يتذكرونني لو جاءتهم أرملة ترتدي السواد وطلبت أيَّ شيءٍ آخر غير ملابس سوداء أو رمادية أو بيضاء بلمسةٍ من الخزام.

فبعد السنة الأولى من الحداد؛ كان ذلك الذي يجِب على أيِّ أرملة.

ولكن وبالنظر إلى ذكاء أخي؛ أيٌّ من ذلك لن يصنع فارقًا، لا يمكنني أن أُعدِّل من مظهري فقط، يجِب عليَّ أن أتحوَّل بالكامل. ولكن كيف؟

أسرِق بعض الملابس من على حبال الغسيل؟

الآن عرفتُ كيف.

محلَّات الملابس المستعملة طريق «ساينت توكينز» مقابل شارع «كيبل» في الجانب الشرقي.

لا أعتقد أن أخي سيسأل هناك. ولا أعتقد أني كنتُ سأخاطر بحياتي بالذهاب إلى هناك.

من مقعدي في القطار حصلتُ على لمحاتٍ عابرة من لندن، ولكن حين خرجتُ من محطة «ألدرجيتس»، ناوية أن تكون خطواتي سريعة؛ وجدتُ نفسي بدلًا من ذلك ثابتة أتأمَّل تلك المدينة الكبيرة الواسعة الممتلئة.

في كل مكانٍ من حولي أطلَّت عليَّ البرية التي صنعها الإنسان بنفسه، مبانٍ أكثر طولًا من أطول شجرة.

أخواي يعيشان هنا؟

في تلك المحاكاة الأسمنتية الساحرة لأي عالمٍ قد عرفتُه من قبل. الكثير من المداخن التي تندفَّق من الأسطح تلوح في الأفق مقابل السماء البرتقالية المبهرة والسحابات الرصاصية كانت منخفضة، والشمس التي تغرُب تتسرَّب أشعتها من بين تلك الغيوم.

كانت أبراج المدينة القوطية منتصبةً تعكسُ السماء المضيئة كشموع في كعكة عيد ميلاد الشيطان.

بقيتُ أحدق حتى بدأت ألاحظ ضِيق جحافل المارة من سكان المدينة الذين يحاولون أن يتخطَّوني ذاهبين إلى أعمالهم.

أخذت نفسًا عميقًا، أغلقت فمي، ابتلعت ريقي ثم أعطيت ظهري لذلك الغروب المشئوم.

هنا في لندن مثل أي مكانٍ آخر، أخبرتُ ذاتي أن الشمس تغيب في الغرب، لذا أجبرت أطرافي المنهكة على الحركة.

مشيتُ في طريق واسع يقود إلى الشرق بما أنِّي قد أعطيت ظهري للشمس باتجاه محل الملابس المستعملة.

المرفأ، الشوارع الفقيرة، الطرف الشرقي.

بعد بضع بناياتٍ دخلت إلى شوارع ضيقة ألقتِ المباني المزدحمة بظلالها عليها. ومن خلفي غاصت الشمس في الأفق، في ظلام المدينة لا نجوم ولا قمر قد ظهر، ولكن أضواء صفراء قادمة من واجهات المحلَّات قد افترشت الأرصفة وبدت كأنها تُقاطع الظلام.

كان المارة يظهرون وكأنهم رؤًى قادمين من الظَّلام، ليظهروا لعدة خطوات بفعل إضاءة الواجهات، ومصابيح الشوارع ثم يبتلِعُهم الظلام في الزوايا، أو يشبهون الخيالات القادمة من الكوابيس.

تندفع الفئرانُ من الظلال وإلى الظلال، فئران المدينة الشجعان الذين لم يهربوا حين مررتُ بجوارهم.

حاولتُ ألَّا أنظر إليهم، وحاولت التظاهر بأنهم غير موجودين. وحاولت ألا أحدِّق في الرجل غير الحليق الذي يرتدي ربطة العنق القرمزية، ولا في الفتى الذي يتضوَّر جوعًا مُرتديًا ملابس بالية، ولا الرجل القوي الذي كان يرتدي مَريلة مُغطاة بالدماء، ولا المرأة الغجرية الحافية الواقفة في ركن.

إذن فهناك غجَر في لندن أيضًا، ولكن ليس هناك غجَر في الأرياف المتباهية.

كان هذا شحَّاذًا قذِرًا، كئيبًا مثل مدخنة.

تلك كانت لندن؟

أين المسارح وعربات الخيل الغالية والسيدات المتزيِّنات بالجواهر والمتلفِّحات بالفراء مُرتديات فساتين السهرة؟ أين السادة ذوو الحمَّالات الذهبية وروابطات العنق البيضاء، وذيول البذلات الطويلة؟

عوضًا عن ذلك كان الأمر وكأني أتمشَّى في بيت كلب.

جاء رجل شاحِب يرتدي لوحة إعلانات أمامه وعلى ظهره، كان مكتوبًا فوقها :

«للمعانٍ لا مثيل له للشعر

استخدموا

«فان كمت»،

زيت ماكاسار.

التفَّ حوله مجموعة من الأطفال المتَّسخين، ساخِرين منه، وقارِعين قُبعته من فوق رأسه وهم يرقصون.

فتاة راقصة منهم سألته: أين تحتفظ بالخردل؟

ويبدو أنها نكتة رائعة لأنَّ أقرانها انطلقوا في الضحك مثل الضِّباع.

امتلأت الشوارع المظلمة بضجيج مُشابه. أصحاب المحلات يصرخون في أطفال الشوارع «ابتعدوا عن هنا»، بينما العربات تنطلق من أمام تجار السمك الذين يصرخون «سمك الحادوق الطازج للعشاء»، والبحَّارة يُلقون التحية على بعضهم بعضا، ومن أمام باب بيتٍ فقير صرخت امرأة «سارة.. ويلي..».

تساءلت أنه ربما كان ابناها اللذان تُنادي عليهما مع بقية الأطفال يُعذِّبون الرجل الذي يحمِل اللافتة.

في تلك الأثناء كان المارة يمرُّون بجواري، يتحدثون بأصوات عالية، وبِلُغةٍ بذيئة، مشيتُ أسرع وكأنه يمكنني أن أهرب. يا لها من مشاهد عجيبة، والكثير من الغوغاء.

لا عجَب أنَّني لم أسمع الخطوات التي تبعِتْني، لم ألاحظ حتى.

ازداد الظلام ودخلنا أكثر في الليل، أو هكذا بدا لي الأمر في البداية، ولكنني استوعبتُ أن الشوارع نفسها هي التي صارت أكثر قتامة؛ فلم يعُد هناك محلات ذات واجهات مُضيئة، فقط الحانات في الزوايا، وأصوات السكارى تنساب من داخلها للظلام.

رأيتُ امرأة واقفة على باب حانة منهم، وجهها مُزيَّن، شفتان حمراوان، وبشرة بيضاء، وحاجبان سوداوان، وخمَّنتُ أنَّني أرى فتاة ليلٍ مرتديةً ملابسها القصيرة الرخيصة كان يفوح منها رائحة الجبن بشكلٍ سيئ، كان يمكنني أن أشمَّه حتى من بين الروائح السيئة الأخرى التي جاءت من جسدها الذي قلَّما غسلته.

ولكن لم تكن هي مصدر الرائحة السيئة الوحيدة؛ فالطرف الغربي من لندن كان له رائحة الملفوف المسلوق، مخلوطًا بدخان الفحم مع رائحة السمك الميِّت ورائحة الصرف الصحي القادمة من المزاريب، وبالطبع رائحة الناس في تلك المزاريب.

رأيتُ رجلًا راكضًا سكران أو مريضًا، رأيتُ أطفالًا مُجتمعين مثل الجِراء للنوم واستوعبتُ أنهم لا يملكون منازل. تألَّم قلبي.. أردتُ أن أُنقذ أولئك الأطفال، وأُعطيهم بعض الأموال ليشتروا الخبز، وفطيرة لحم، ولكنِّي أجبرتُ نفسي على الاستمرار في المشي مُطوِّلة حجمَ خطوتي، شاعرة بالخطر.

ظِلٌّ مُظلم زحف على الرصيف أمامي. زاحفةً على يديها وركبتيها، تسحب قدميها الحافيتَين توقفت فجأةً محدقة شاعرة بالصدمة من منظر العجوز التي أصبحت في مثل هذا البؤس، لا يُغطيها سوى ثوبٍ بالكاد يسترها لا يوجَد تحته شيء ولا شيء على رأسها أيضًا، ولم يكن هناك حتى على رأسها شعر. فقط مجموعة من التقرُّحات غطَّت جمجمتها.

منعتُ صرخة كادت تصدُر منِّي من المنظر، وهي تحبو في سرعة الحلزون على ركبتيها.

رفعت رأسها بضع بوصاتٍ لتُلقي نظرة عليَّ، كانت عيناها شاحبتَين كالعنب، ولكني كنت وقفت لحظة أطول من اللازم. خطوات ثقيلة جاءت من ورائي، قفزتُ للأمام ناوية الفرار ولكني كنت متأخِّرة.

الخطوات جاءت في أثري وقبضة حديدية أمسكت بذراعي. بدأت في الصراخ ولكن كفًّا فولاذيَّة وُضعتْ على فمي، وبالقُرب من أذني صوت عميق قال بغضب: لو تحرَّكتِ أو صرختِ سأقتلك.

تجمَّدتُ من الهلع.

بعينين متسعتين حدقتُ إلى الظلام ولم أستطع الحركة، بالكاد استطعت التنفُّس وأنا واقفة ألهث.

تركتْ قبضتُه يُسراي، وتسلَّلتْ حَولي لتُمسك بكلتا ذراعي بقوة لتضعهما على جانبيَّ، دافعًا ظهري ليضغط على ما كنتُ سأظنُّ أنه حائط حجري لو لم أعرف أنه صدره.

رفع يدَه من على فمي ولكن في لحظة قبل أن تستطيع شفتاي المرتعشتان أن تكوِّنا صوتًا، وفي الضوء الضعيف للشارع رأيتُ لمعة الحديد.

نصل طويل وأملس كقطعة ثلج.. نصل سكين. بصعوبة أيضًا رأيتُ اليد التي تحمل السكين، يدٌ كبيرة في قفاز باهت الألوان.

– أين هو؟

قالها الرجل بلهجةٍ مُرعبة.

– ماذا؟

أين من؟

لم أستطع أن أتكلم.

- أين لورد تويكسبيري؟

لم يكن لذلك معنى، لِماذا يكون رجلٌ في لندن يسألني أنا عن النبيل الهارب؟

من الذي يعرِف أنَّني كنتُ في بلفدير؟

ثم تذكرتُ الوجه الذي رأيتُه في كابينة القطار ملتصقًا خلف الزجاج.

قال بصوتٍ أشبَهَ بالهسيس: سأسألك مرةً أخرى.. سأسألك مرة واحدة فقط: أين فيسكونت بيري مركيز باسيلويذر؟

ولا بدَّ أن الوقت قد كان بعد منتصف الليل الآن، كانت أصوات صراخ غير واضحة تأتي من بعيدٍ من الحانات وبعض أصوات الغناء السيئ، ولكن كانت الأرصفة خالية تمامًا، أو ما كنت أراه من الأرصفة على أي حال. فأي شيءٍ من الممكن أن يكون في ثنايا تلك الظلال. ولم يكن هذا النوع من الأماكن التي يأمُل المرء أن يجد مساعدة فيها.

- أنا.. آاااا..

تمكنتُ من أن أقول متلجلجة: لا أملك أدنى فكرة.

لمع نصْل السكين تحت ذقني، حيث شعرتُ فوق ياقتي بضغط النصل على عُنقي.

ابتلعتُ ريقي، وأغمضت عيني، بينما حذَّرني خاطفي:

- لا تتلاعَبي معي الآن. أنتِ في طريقك إليه. أين هو؟

حاولت أن أتكلَّم بهدوء: أنت مُخطئ.

ولكن صوتي جاء مرتعشًا.

– أنت تعمل تحت وهمٍ سخيف. أنا لا أعرف...

– كاذبة.

شعرتُ بِنيَّته في القتل تتزايد في عضلات كتفِه.

قفزت السكين، لتهتزَّ في يده، قاطعةً لرقبتي، لتجد بدلًا من رقبتي؛ بلين ياقة القميص وبما ظننتُه آخر أنفاسي صرختُ وأنا ألتوي متملِّصة من قبضة القاتل.

انطلقتُ للأمام ثم للخلف. لوَّحتُ بحقيبة السفر خاصتي يمينًا ويسارًا؛ شاعرة أنها التطمت بوجهه قبل أن تطير من يدي.

أطلق سبَّةً عالية، وتراخت قبضته قليلًا، ولكنه لم يتركني.

صارخًا شعرت بنصله الطويل يطعنني في جانبي، ضربَتُه اصطدمتْ بالمشدِّ الذي أرتديه ليطعَنني مرةً أخرى محاولًا أن يصِل إلى لحمي.

ولكن عوضًا عن ذلك فقد شقَّ ثوبي شقًّا طويلًا، تمزَّق في يده وأنا أركض صارخةً «ساعدوني.. ساعدوني.. فليُساعدني أحدُهم...».

وأنا أتخبَّط في الظلام، أركض وأركض وأنا لا أعرف إلى أين.

– هنا يا سيدتي.

جاء صوت رجل عالٍ، وحادٍّ قادمًا من الظلام.

أحدهم سمِع صرخاتي، برغم كل شيء. كدتُ أن أبكي فرحًا. التفتُّ ناحية الصوت مُلقية بنفسي في زقاقٍ ضيق وحادٍّ بين المباني، وكانت تفوح منه رائحة القطران.

شعرتُ بيده النحيلة تأخذني من كوعي.

– من هنا.

موجهة إيَّاي نحو شيءٍ يلمع في ظلام الليل.. النهر.

جذبني مُرشدي ناحية مَمَرٍّ خشبي ضيق، لم يكن ثابتًا تمامًا تحت أقدامي.

غريزيًّا شعرتُ بالريبة، وتوقفت وقلبي يدقُّ بسرعةٍ لم أعرفها من قبل لأهمس سائلة: إلى أين نذهب؟

وفي أقل مما احتاجه ليقول لي: افعلي ما أقوله لك.

كان قد لوى ذراعي خلف ظهري، ودفع بي للأمام ناحية المجهول.

– توقَّف.

غرستُ كعب حذائي في الألواح الخشبية تحت قدمي، شاعرةً بالحنق أكثر مني خائفة.

لقد كنتُ فقدتُ حقيبة السفر خاصتي، وهُدِّدتُ بسكين، وتقطَّعت ملابسي.

كانت خطتي قد دُمِّرت تمامًا، والآن شخص قد ظننتُه منقذي يتحوَّل لعدوٍ جديد.

لقد نلتُ كفايتي.

صرختُ بأعلى صوتي: توقَّف يا حقير.

لاويًا ذراعي بقوةٍ أكثر: أمسكي لسانك.

ثم دفعني دفعةً قوية. لم أستطع سوى أن أتعثَّر للأمام، ولكني واصلت: اللعنة.. اتركني.

شيء ما ثقيل ارتطم بأذني اليُمنى، سقطتُ على جانبي في الظلام.

ليس من العدل أنَّني فقدتُ الوعي، أنا لم أفقد الوعي أبدًا، وأتمنَّى ألَّا يحدُث ذلك، ولكن ما حدث أنني فقدتُ التحكم بأغلب حواسِّي، عندما فتحتُ عيني وجدت أنني نصف جالسة ونصف نائمة على أرضيةٍ خشبية مُلتوية، كانت يداي مربوطتين خلف ظهري، وكعباي مربوطين مثلهما بحبلٍ من القنب.

معلقًا من سقف خشبي حقير كان هناك مصباح زيتٍ باعثًا بحرارة ورائحة خانقة، وضوء شاحب. رأيتُ أحجارًا كبيرة حول ماءٍ بلون التربنتين بالقُرب من قدمي.

الأرضية بدت وكأنها تتحرك من تحتي، وشعرت بدوار خفيف وخفة في رأسي، مغلقة عينيَّ انتظرتُ أن يمرَّ ذلك الإحساس، ولكنه لم يمر، واستوعبتُ ساعتها أن شعوري بخفة الرأس لم يكن بسبب الخبطة التي تلقَّيتُها من خاطفي على رأسي، ولكن الشعور بالخفة جاء من كونه نزَع القبعة من على رأسي،

ربما خوفًا من البنس التي من الممكن أن أستخدمها، شعرتُ أن رأسي عارٍ، وأنني مكشوفة، وأن عالمي يرتجُّ ويهتز، ولكنني لم أكن مريضة.

كنتُ مستلقية في قبو قارب. في بدن القارب إن أردنا الدقة. أتذكَّر أن ذلك ما كانوا يدعونه، بينما لم تكن لديَّ أي خبرة في السفن، أو البوارج. كنت قد ركبتُ زورق تجديف مرة أو مرَّتَين، وأستطيع أن أتعرَّف شعور الطفو، وحركة القوارب في المياه وهي واقفة نوعًا ما.

إذن فأنا في الماء ولكن القارب مربوط لا يتحرك والسقف حيث كان المصباح يتأرجح كان هو الجانب السُّفلي من سطح السفينة، وتلك البركة العفِنة تحت أقدامي يُطلَق عليها ماء جوف المركب، وتلك الأحجار بجوارها فهي صابورة ثقل الموازنة.

افتح عينيَّ ناظرةً للظلام. مسحتُ بعينيَّ سِجني المظلم، لأستوعب أنني لست وحدي.

ففي مواجهتي في الجانب الآخر في بدن السفينة ويداه خلف ظهره وكعباه مربوطين صبيٌّ يدرُسني بعينَيه.

عين غامقة غاضبة، فكٌّ قاسٍ، ملابس رخيصة، قدمَان حافيتان ناعمتَان مُتقرِّحتَان شاحبتَان، شعر فاتح غير متساوٍ، ووجه رأيتُه من قبل، رأيته فقط على صفحات الجرائد ولكنني تعرَّفته.

«فيسكونت تويكسبيري» مركيز باسيلويذر.

ولكن.. ولكن ذلك غريب ومُستحيل.

كان من المفترَض أن يكون هاربًا للبحر.

دون أي مُقدمات أو تعاريف تساءلت: بحق السماء ما الذي تفعله هنا؟

عقد حاجبَيه الذهبيَّين: أأنتِ تفترِضين معرفةً سابقة يا آنسة؟

– بحقِّ السماء أنا لا أفترض أيَّ شيء.

وقد كانت مُفاجأتي واستيائي يُجبراني على أن أفرد ظهري بصعوبة، وأُكمل بغضب: أنا أعرف من أنت يا تويكي.

– لا تَدْعيني بذلك.

– حسنًا لورد تويكسبر.. تويكسبري البحري. ما الذي تفعله هنا حافيَ القدمَين على هذا القارب؟

– المرء يُمكنه أن يسأل ذات الشيء عن فتاةٍ مُتنكرة كأرملة.

كانت لهجتُه الحادة تُشابه أكثر فأكثر الطريقة الأرستقراطية في الحديث.

رددتُ في سرعة: آه.. وأنت مجرَّد صبيٍّ يعمل بالبحر، ويتحدَّث بلكنة أرستقراطية.

– آه وأنتِ أرملة بدون خاتم زواج.

لم أكن أستطيع أن أرى يديَّ وهما معقودتان خلف ظهري، لذا لم أكن أعرِف، ولكني استوعبتُ الآن أنهم نزعوا قفَّازاتي.

تساءلت: لماذا نزع قفَّازي عنِّي؟

قال اللورد مُصحِّحًا: نزعا.. جمع.. هناك اثنان منهم، أرادا سرقة خاتمك لكنهما لم يجداه.

بالرغم من لهجته المتعالية وكأنه يُحاضر الهواء، كان يُمكنني تمييز أنَّ وجهه شاحب، ورؤية شفتَيه المرتعشتَين وهو يتحدَّث.

– لقد فتَّشوا جيوبك أيضًا ووجدوا بعض الشلنات ودبابيس الشعر وثلاثة أعواد عرقسوس ومنديل قذِر...

– بالتأكيد.

حاولت أن أُخرِس سرده حيث إن فكرة أنه أثناء غيابي عن الوعي؛ رجال غرباءِ وضعوا أيديَهم في جيوبي... الفكرة ذاتها جعلتْني أرتجِف. لحُسن الحظ لم يلمس أحدهم جسدي حيث كانت كل أغراضي مُخبَّأة حوله. ما أزال أستطيع الشعور بحشو الأرداف والمشد، ومُحسِّن الملابس موضوعةً في أماكنها كما كانت.

– مشط، فُرشاة، كُتيب صغير مُنمَّق يوجَد عليه زهور.

شعرتُ بقلبي في حلقي، ونظرتُ إليه وكأنه قد قتل أمي. كانت عيناي مُشتعِلتَين، ولكني عضضتُ على شفتيَّ حيث لم يكن ذلك الوقت المناسب ولا المكان المناسب للحزن على ما خسرته.

– وبما أنَّ أحد جوانب فستانك كان مقطوعًا ظهر جزء من المشد الوردي الفاضح الذي ترتدينه.

قلتُ بغضبٍ شديد قد غذَّاه بؤسي: يا لك من ولدٍ بذيء.

كان جسدي يرتجِف من الخجَل والغضب معًا.

انفجرتُ فيه قائلة: أنت تستحقُّ ما أنت فيه الآن، مربوط اليدين والقدمَين...

– وماذا عنكِ؟ أنت لا تَبدين أكبر منِّي حتى، هل تستحقِّين نفس الشيء؟

– أنا أكبر منك.

– أكبر منِّي بكم؟

كدتُ أن أُخبره، لكني تذكرتُ أنه لا يجِب عليَّ أن أكشف عن عمري لأي شخص.

لقد كان ذكيًّا، وبالرغم من محاولته لأن يظهر دون ذلك فقد كان خائفًا.. خائفًا مثلي تمامًا.

بعد أن أخذتُ نفسًا عميقًا سألته بهدوء: كم مرَّ عليك وأنت مسجون هنا؟

- حوالي ساعة، بينما كان أصغرهم يختطفني بدا وكأنَّ الكبير يتبعُك لسببٍ ما. أنا...

قطع حديثَه وقد جاء صوت خطوات ثقيلة من فوقنا، توقَّفتِ الخطوات وجاء ضوء مصباح من فتحةٍ في نهاية سجننا، ووجدتُ نفسي أشاهد رجلًا ينزل السلالم.

رأيتُ حذاءه المطَّاطي أولًا، كان يقول لأحدهم وهو ينزل: من حوالي ساعة.

تعرَّفت على صوته الحاد، كان رفيعًا، واهيًا، مُحنيًا. كان هذا الرجل مُنكمشًا مثل كلب شوارع مُصاب بسوء تغذية.

- وجدتُه حيث أخبرتموني في برقيَّتِكم. يتجوَّل على أرصفة الميناء، بالقُرب من نقطة تحميل (الشرق العظيم)، نحن نعرف عملنا جيدًا، ولكن ماذا عن الفتاة؟

جاء صوتٌ عميقٌ لرجلٍ آخر وهو يهبط بدوره: نفس الشيء.

كنت أعرف ذلك الصوت أيضًا، وراقبتُه في هدوء وحذاؤه الأسود ينزل على السلم، يتبعه أطرافه الضخمة المكسوَّة بالملابس الداكنة، ملابس لا بدَّ أنها كانت في يومٍ ما ملكًا لرجلٍ أرستقراطي، إلا أنها الآن تدهورت كثيرًا. كان يُمكنني أن أرى في ضوء المصباح الذي يحمله قفَّازه الباهت. كان مُصفرًّا.

كان الكثير من الطبقات العُليا يرتدون مثل هذا القفاز، رجال وسيدات، وكان في الأغلب أصفر اللون، كانوا يرتدونه ليُظهروا أنهم من طبقةٍ اجتماعية عالية.

حين اكتمل نزول الرجل، وظهر ظهرُه الضخم بالكامل لاحظتُ أنه بالرغم من ذلك لا يرتدي قبعةً أرستقراطية، ولكن قبعته قماشية من قبعات العمال.

كنتُ مستعدَّةً وقتها حين استدار ورأيتُ وجهه، لقد كان هو بالفعل، الوجه البارد الأبيض الذي كان يُحملق من خلف الزجاج في كابينة القطار.

كان وجهه يُشبه قمرًا مؤذيًا، وحين نزع قُبعته بدا وكأنه جمجمة مؤذية، فقد كان أصلع تمامًا، أصلع مثل يَرقَة، لم يكن هناك أيُّ شعر في رأسه باستثناء خطٍّ أحمر بارز من أذنيه.

- اعتقدت أنك تلاحقها فقط في حالة أني لم أستطع أن أُمسك به.

قال الآخر.

- نعم، كان ذلك للتأكيد.

ردَّ الأصلع الضخم.

- ولكن أيضًا لأنها قالت إن اسمها «هولمز».

أثناء حديثه مع شريكه كان يتأمَّلني باستمتاع خبيث، على وجهه ابتسامة بشعة، وقد اتسعت عيناي، وفغرتُ فاهي، لم أستطع إخفاء صدمتي، كيف عرف من أنا؟ كيف تمكن من معرفة ذلك؟

مُستمتعًا بردة فعلي أعطى ظهره لرفيقه: تقول إنها قريبة «شيرلوك هولمز»، لو كان ذلك صحيحًا فهناك غنيمة يُمكننا الحصول عليها.

– لماذا حاولت قتلها إذن؟

إذن فذلك الرجل الضخم ذو شعر الأذن الكثيف كما ظننتُ هو القاتل الذي كان يُمسك بي.

هزَّ كتفَيه وقال: لقد أزعجتني.

قالها بلهجةٍ لا مُبالية، استطعتُ إغلاق فكي، وقد بدأتْ الأشياء تبدو منطقية.

لقد كان يبحث عني على القطار، وتبِعَني من المحطة، ومع ذلك لا شيء منطقي. لماذا كان يُحقق معي؟ ولماذا كان يظنُّ أنني أعرف مكان لورد تويكسبيري؟

نظر القاتل في عينيَّ مباشرة بعينَين مثل الثلج الأسود.

– اللعنة.

كنت أشعر أن هناك شيئًا مألوفًا في نظرته إليَّ، لا يمكنني إنكار كم أرعبَتْني حتى أنني كنت أرتعش وهو يقول: الفتيات هنا لا يملكن الشلنات الكافية لابتياع المشدَّات، لقد شققتُ بطونًا كثيرة في أيامي، لا تحاولي أن تتحدِّيني مرة أخرى.

جلستُ صامتة لا أستطيع أن أفكر في ردٍّ مناسب. الحقيقة أني كنتُ خائفة بشدَّة، ولكن ساعتها الرجل الآخر الضعيف أفسد كل ذلك بقوله: حسنًا، من الأفضل أن تحترس من أن تجعل «شيرلوك هولمز» غاضبًا. ممَّا أسمعه فسيكون من الحمق العبث مع ذلك الرجل.

التفتَ إليه الضخم: أنا أعبث مع من أشاء.

كانت نبرتُه حادة وشريرة كنصل سكين.

– أنا ذاهبٌ للنوم، فلتحرُس هذَين الاثنين.

تمتم الآخر: كان ذلك ما سأفعله على أيِّ حال.

لكنه لم يقُلها إلا عندما تأكد أن الوحش الضخم قد اختفى صاعدًا على سطح المركب.

النحيل الأشبَه بالكلب الأجرب جلس مُعطيًا ظهره للسلم، وحدق بنا بعينَيه الصغيرتَين الشريرتين.

قلتُ بلهجةٍ مطالبة: من أنت؟

حتى في إضاءة المصباح الزيتي الخافتة تمكَّنتُ من أن أرى في ابتسامته الصفراء أنه يفتقد لعدة أسنان.

– الأمير الساحر في خدمتك.

كانت كذبةً واضحة، اكفهرَّ وجهي.

جاء صوت لورد تويكسبيري مُحدثًا إيَّاي: بما أننا نقوم بالتعارف، ما اسمك؟

هززتُ رأسي في رفضٍ بينما جاء الصوت الحاد قائلًا: امنعا الكلام.

سألتُ في برود: ما الذي تنوي أنت وصديقك فعله بنا؟

- سنأخذكما للرقص يا عزيزاي. قلتُ لكما ألَّا تتكلَّما.

كنت غير مستعدة لتسلية ذلك الشخص البغيض، استلقيتُ على جانبي، على الأرضية الخشبية، جاعلةً الناحية المقطوعة من فستاني تحتي، وأغلقتُ عيني.

كان من الصعب النوم، أو حتى التظاهر بالنوم ويداي مربوطتان خلف ظهري، وليزدَدِ الأمر سوءًا فإن المشدَّ الحديدي كان يؤلمني تحت ذراعي.

كلٌّ من أفكاري وجسدي كانا أبعدَ ما يكونان عن الراحة.

كان ذكر «الغنيمة» يُشير إلى المال، مما يقودني لاستنتاج أنني محتجزة للحصول على فدية، لم أستطع أن أتخيَّل طريقةً أكثر إهانةً أعود بها لأخويَّ، اللذين بلا شكٍّ سيُرسلانني إلى مدرسةٍ داخلية بعدما يَصفعانني فوق مُؤخِّرتي.

تساءلت إذا كانا سيأخذان أموالي، وتساءلت كيف.. كيف.. كيف ذلك الأحمق الضخم عرف مَن أنا ليتبعني، والأكثر ترويعًا كيف عرف عن «فيسكونت تويكسبيري» وبعث ببرقية لمساعده الأجرب عنه.

وتساءلتُ ما الذي كان يقصده بـ (نفس الشيء).

ارتجفتُ من الرعب، وأجبرت ذاتي على أن أبقى مُتأهبة لأي فرصةٍ للهروب.

وفي نفس الوقت كنتُ أعرف أنَّ من الحكمة أن أتنفَّس بهدوء أكبر، وأن أتوقف عن الارتعاش، وأن أحتفظ بِطاقتي وأحاول النوم.

بسبب شكل هيكل السفينة كنتُ مُستلقية على منحدَر يُشبه الأرجوحة التي نُعلقها بين الأشجار، ولكنها لم تكن بنفس الراحة. حتى مع البِطانات التي كنتُ أرتديها. معدلة من أوضاع أطرافي حاولتُ أن أضبط نفسي في وضعية أقلَّ ألمًا دون أيِّ نجاح بسبب تلك الضلوع الحديدية المزروعة في المشد. لم تكن فقط تؤلِم ذراعيَّ، ولكن كانت تنغز في قماش فستاني؛ مُذكرةً إيَّاي بكسين القاتل.. سكين...

أستلقي في هدوءٍ شديد.. آه.. آه.. لو فقط تمكنتُ من فِعلها.

بعد لحظات تفكير أفتح عينيَّ بما يكفي فقط لأرى كلب الحراسة ذا الصوت الحاد من خلف رموشي، يا لحُسن الحظ أنَّ تحفُّظي جعلني أنام على الجانب الأيمن المواجِه له لأُخفي القطع.

كان يجلس وظهرُه مواجه للسلَّم، ولكن كان رأسه مُتدليًا، غارقًا في النوم.

ولم لا؟! فطالما قد بقي في مكانه أمام السلَّم، كيف سيتمكن سجيناه من الهرَب؟

ولكن سنتعامل مع تلك المشكلة لاحقًا.

بأقصى درجات الصمت أدرتُ الجزء العلوي من جسدي محاولةً أن أضع مِعصميَّ المقيدَين على الضلع البارز من المشد، لم يكن الأمر سهلًا؛ حيث إن

القطع في فستاني كان جانبيًّا، ولكن بمدِّ ذراعي إلى أقصى مدًى بينما أدعم جسدي بمرفقي الآخر، وجززتُ على أسناني مانعةً أي أصوات من الخروج، استطعتُ أن ألفَّ الحبل الذي يربط يديَّ حول بروز المشد الحديدي.

كنتُ ملتويةً بدرجة كبيرة حتى استطعتُ بالكاد أن أتحرَّك، ولكن بالرغم من ذلك تمكنتُ من إخراج الضلع الحديدي من قماش المشد، ثم بدأتُ في محاولة قطع الحبل، لم أنظُر ولا مرة للورد «تويكسبيري»، وحاولت ألَّا أفكر فيه وأن أوكد لذاتي أنه نائم، لأنه لو لم يكن نائمًا كنتُ سأموت من العار من منظري الآن.

إلى أعلى وإلى أسفل.. إلى أعلى وإلى أسفل.. بصعوبةٍ كبيرة أقطع قيدي على قطعة الحديد البارزة، كان الأمر مؤلمًا واحتاج إلى وقتٍ طويل، لا أستطيع أن أقول كم من الساعات المؤلمة قد مرَّت حيث لم يكن هناك طريقة أعرف بها الصباح من المساء في تلك الحفرة. لم تكن هناك طريقة أيضًا لأعرف إن كنتُ أحرِز أي تقدُّم في قطع تلك الأربطة؛ لأنني لم أكن أرى ما أفعله.

كنتُ أشعر في بعض الأحيان أنني أقطع جلدي، ولكني أحكمتُ إغلاق فكِّي، وقطعت أكثر، وعيناي ترتكزان على الحارس النائم، وأُذناي تجتهدان لتسمَعا أبعدَ من أنفاسي اللاهثة.

كان أكثر ما سمعتُه هو حركة الأمواج، والصدمات المكتومة لانجرافات القارب ليرتطِم بالرصيف.

انتفض الحارس وقد قرصَه برغوث، امتلكتُ ما يكفي من الوقت فقط كي أفرد جسدي، ويداي ما زالتا مُخبَّأتين خلف ظهري قبل أن يفتح عينَيه.

- أنتِ.

قال مُحدقًا إليَّ: لم تهَزِّين ذلك القارب اللعين؟

تجمَّدتُ منكمشةً مثل أرنبٍ في الغابة، ولكن من الجانب الآخر من باطن السفينة جاء صوت مُتغطرس قائلًا: لأي غرَض؟ أنا أرغب أن يهتزَّ القارب، أنا أُطالب أن يهتزَّ القارب، أنا آمُر هذا القارب أن يهتزَّ.

واهتزَّ القارب بالفعل لأنَّ الفيسكونت الصغير تويكسبيري ماركيز باسيلويذر كان مُتكئًا بظهره هازًّا سِجننا.

- أنت هناك.

انتقلتْ نظرة ذي الصوت الحادِّ له قائلًا: توقَّف.

التقت عينا لورد تويكسبيري وقال بتغطرُس: فلتُجبرني على ذلك.

- تُريدني أن أُجبرك؟

وقف ذو الصوت الحاد على قدمَيه: تعتقد أنك قوي. أليس كذلك؟ سأُريك.

مُكوِّرًا قُبعته اتجه نحو تويكسبيري، وبقيامه بذلك قد أدار ظهره لي.

جلستُ والْتويتُ متكئةً على جانب واحد، لأتحسَّس لأجد نتوءَ المشدِّ بيدي المقيدة.

بقوة ووحشيةٍ ركل خاطِفُنا اللورد القصير تويكسبيري في قدمَيه، لم يُصدِر الفتى أي صوت، ولكنني كدتُ أن أصرخ، أردتُ أن أضرب هذا الرجل

الشرير وأوقفه. بالتأكيد فقدتُ عقلي تمامًا، وأنا أناضِل ضدَّ تلك الحبال التي تربط رسغيَّ بشراسة حتى بدا أني سأخلع ذراعيَّ من كتفيَّ. ثم انقطع شيء، وآلَمَني ذلك بشدة.. كان حاد الصوت يركُل تويكسبيري مرةً أخرى، والصبيُّ يقول: استمر، فذلك يُعجبني.

ولكنَّ صوتَه المخنوق كان يُظهر أنه يكذِب.

كانت ذراعايَ تؤلِمانِني بشدة حتى أنني ظننتُ أنني كسرتُ عظمة بدلًا من الحبال حتى وجدتُ نفسي أنظر ليديَّ وقد قدَّما نفسهما أمام وجهي كغُرباء قذِرِين.

كانت يداي مليئتَين بالخدوش، داميتَين، وتساقطت قطرات الدم من رسغيَّ.

- يعجبك ذلك؟ سأتأكَّد أن أُعطيك ما يُعجبك.

بصوته الحاد وهو ما يزال يركل اللورد تويكسبيري للمرة الثالثة بقوة كبيرة قال حارسنا الحقير.

تلك المرة جاء نشيج تويكسبيري، وفي نفس اللحظة وقفتُ على قدميَّ، كان كاحلاي ما يزالان مُقيَّدَين، ولكنَّ المشي لم يكن ضروريًّا حيث إنني كنت أقف مباشرةً خلف خاطفنا.

يداي اللتان عرفتا ما يجب فعلُه أكثر منِّي اختارتا صخرةً كبيرة من الصابورة وكان ذو الصوت الحاد رافعًا قدمَه مُتأهِّبًا ليركُل مرة أخرى، وقبل أن يفعل ذلك رفعتُ سلاحي البدائي وأنزلتُه على رأسه بإصرارٍ عظيم.

وقع دون صوتٍ في الماء الآسِن على الأرض.

وقفتُ ثابتةً أحدِّق إليه، حتى صاح فيَّ لورد تويكسبيري: يا حمقاء فكِّي قيدي.

كان الرجل الساقط أرضًا باقيًا كما هو، جامدًا في مكانه، ولكنه كان يتنفَّس.

– فُكِّي قيدي يا بلهاء.

لهجة الفتى الحاسِمة أعادتْني للحركة، أعطيتُه ظهري.

– ما الذي تفعلينه يا مغفلة؟

كنتُ أحافظ على ما تبقَّى من احتشامي، ولكنِّي لم أخبره بذلك. أفكُّ جزءًا من فستاني، وأمدُّ يديَّ إلى الأمتعة التي خبأتها أمام بطني، وأسحب المديةَ التي كنتُ قد أزلتُها من مجموعة الرسم خاصَّتي، وخبأتُها مع قلم رصاص وبعض الأوراق المطوية. بعد أن أعدتُ إغلاق فستاني؛ فتحتُ المدية وانحنيتُ وقطعتُ الحبال التي تربط كاحليَّ.

لم يتمكن اللورد تويكسبيري من رؤية ما الذي أفعلُه فتوقَّف عن إعطائي الأوامر حتى أنه بدأ في التوسُّل.

– أرجوكِ، أرجوكِ، لقد رأيتُ ما حاولتِ فعله، وساعدتُك.. أليس كذلك؟ أرجوكِ أنتِ...

– هششششششش.. لحظة.

بعد أن حررتُ قدميَّ، التفتُّ وخطوت من فوق الحارس، ثم انحنيتُ وبضربةٍ واحدة سريعة قطعتُ الحبال التي تُقيد يدَيه خلف ظهره، ثم ناولتُه المدية حتى يستطيع أن يُحرر قدمَيه بنفسه.

في تنُّورة فستاني المقطوع مسحتُ دماء رسغيَّ، نظرت إلى القطع في يدي ووجدت أنه ليس عميقًا بدرجة أن يكون خطيرًا، ثم تحسَّست شعري، الذي كان قد تشعَّث وقد فُكَّت كعكته، ونزل على كتفيَّ.

أجد بعض بنس الشعر في تموُّجاته، حاولتُ أن أستخدمها في إغلاق القطع في فستاني.

ممسكًا بمُديتي المفتوحة كسلاحٍ في يده، حثَّني الفيسكونت الصغير تويكسبيري الذي يقِف الآن على قدمَيه.

– هيا بنا.

كان مُحقًّا بالطبع؛ فلم يكن هناك وقتٌ لأُهندم نفسي. أهزُّ رأسي وأقترب من السلَّم الذي يقود إلى الحرية، ولورد تويكسبيري بجواري.

ما إن وصلنا حتى تردَّدنا وتلاقتْ أعيُننا.

– السيدات أولًا.

قال فخامته بشك.

– أُفضِّل أن يتقدَّم السادة.

رددتُ مفكرةً أنَّ على الفتاة ألا تضع نفسها أبدًا في وضعٍ يُمكِّن ذكَرًا أن ينظر تحت تنُّورتها.

غير مفكرة على الإطلاق فيما قد يكون في انتظارنا. هزَّ رأسه وهو ما يزال مُتشبثًا بالمدية، تسلَّق تويكسبيري السلَّم. أعمتني الإضاءة ما إن فتح الكوَّة، قد مرَّ الليل وجاء النهار. لا أعلم بالضبط إن كان نهارًا أم بعد الظهيرة، كل ما كنتُ أراه من الومضات ما بين غمضات جفوني كان ظِلَّ الفيسكونت الصغير الحذِر وهو يمدُّ رأسه لينظر من حوله.

بهدوءٍ نحَّى فتحة الكوَّة جانبًا، وصعد على السطح، وحثني على أن أسرِع. تسلَّقتُ بأقصى سرعة، لأُدرك أنه كان في انتظاري. يدُه ممدودة ليُساعدني على الصعود.

بالرغم من نعتِهِ لي بالحماقة والبلَه، والسذاجة، فإن الفتى كان يُظهر بعض آثار الشهامة.

كان من الممكن أن يكون أكثرَ حكمةً ويهرُب بدوني، ولكن بدا أنَّ من الصواب حيث إنَّنا كنَّا مسجونين معًا؛ أن نهرُب معًا.

بالتأكيد لم يخطر على بالي أن أترُكه خلفي، ومن الواضح أنه لم يفكر أيضًا في أن يتركني.

ما إن وصلتُ لأعلى السلَّم حتى أمسكت بيده. صوت فظيع جاء حاملًا سبَّةً لم أسمعها من قبل، أو حتى أتخيَّلها، بينما رأسي بالكاد قد خرج من الكوَّة.

رأيتُ شيئًا ضخمًا طويلًا قرمزيًّا يأتي مسرعًا من كابينةٍ قريبة على سطح السفينة مُتقدمًا نحوَنا. في تلك اللحظة المروِّعة عرفتُ أن ذلك الرجل غير النبيل كان يرتدي ملابس داخلية مكوَّنة من فانلة حمراء قانية مُمتدة من رسغه حتى كاحله.

واقفًا على قدَميه حملني تويكسبيري من على السلَّم: هيا بنا.

دافعًا بي من أمام المجنون الأحمر.

- اركضي.

بدا وكأنه قد نوى أن يقِف أمام ذلك الوحش الغاشم، بمُديته الصغيرة.

- اركض أنت.

رفعتُ تنُّورتي، لفوق ركبتي، بيدٍ وباليد الأخرى جذبتُه من ياقته وأنا أركض بالفعل في اتجاه الجانب الآخر من القارب.

معًا -وقد احتجتُ إلى أن أترك ياقتَه بالتأكيد- ركضْنا من فوق المساحة المائية الصغيرة التي تفصِل بين القارب وبين الألواح الخشبية التي أعتقِد أنَّنا يمكن أن نُطلق عليها رصيف ميناء، وبعدها ركضتُ بأقصى سرعةٍ ممكنة في ذلك الممر الضيق غير الثابت مُمسكةً بتنُّورتي بكلتا يديَّ.

- لن تبتعِدا كثيراً.

تردَّد الصوت الغاضب الشرِس قادمًا من خلفنا من القارب.

- انتظرا حتى أضع بعض الملابس عليَّ وما إن أضع يديَّ عليكما...

لطول قدميَّ فإني أحبُّ أن أركض، ولكني لا أحبُّ أن أتعثَّر في ملابسي. خاصةً حين أركض فوق متاهةٍ من الألواح الخشبية المتعفِّنة. الكثير من الأرصفة والمياه المالحة، والمماشي الضيقة، ومياه نتِنة الرائحة بيننا وبين الحانات والمستودعات القائمة على حافة نهر التايمز.

- أي اتجاه؟

قالها «تويكي» لاهثًا. نعم «تويكي» فأنا لا أستطيع أن أفكر فيه كلورد أو كفيسكونت أو كابن دوق، قد صار رفيقي الآن يلهَث خلفي مباشرةً.

- لا أعرف.

مُحاطَيْن بمياه قاتمة كالقطران، وصلنا إلى طريق مسدود. حاولنا ألا نفقد توازننا وننزلِق ونحن ننطلِق بسرعة عائدَين من حيث أتينا، مرة أخرى. ذراع من الماء سدَّ طريقنا، بدأتُ بالارتجاف وكأني سقطتُ بالفعل في ذلك النهر الأسود، لو حدث ذلك ستكون نهايتي، سوف أغرق.

تساءلتُ إن كان « تويكسبيري» يستطيع السباحة، ولكن لم يكن هناك وقتٌ للتردُّد.

على بُعد مسافة ليست ببعيدة عدُوُّنا الضخم انطلق من كابينته مرة أخرى وقد وضع بعض الملابس على جسده الآن صارخًا: سأقتُلكما.

كذبٍّ يطارد فريسته انطلق من مركبته إلى متاهة الرصيف، والأسوأ من ذلك أن الوغد الصغير قد تبِعَه كما يتبع الكلب الجائع الشحَّاذ، ومن الواضح أني لم أضرب ذا الصوت الحاد بقوةٍ كافية، صرختُ: اقفز.

قفزتُ إلى رصيفٍ آخر، وتنُّورتي تتطاير، اهتز الرصيف من تحتي ولكنني تمكنتُ من الحفاظ على توازُني، وفي نفس اللحظة التي تنفَّست فيها الصعداء اهتزَّ الرصيف مرةً أخرى وتويكسبيري ينزل بجانبي مُحدثًا صوتًا عاليًا.

لم أملك أنفاسًا كافية لأُطلق صرخة، فخرج منِّي عوضًا عن ذلك عواء أشبَهُ بصوت حبل الغسيل المعدني.

جذب تويكي ذراعي صارخًا: اركُضي.

وتلك المرة كان هو من يقود الطريق.

في لحظةٍ ما كان قد فقد المِدية، وكانت يدُه اليمنى ترتجف بدون سلاح. فازداد ارتجافي وقد شعرتُ بخطوات القاتل الثقيلة على الميناء تتبَعُنا.

صرخت: أوه.. لا...

ونحن نقِف في نهاية رصيف لا يؤدي إلى أي مكان.

قال تويكي شيئًا لا يمكنني أن أُكرِّره، فقلتُ وأنا ألتفِت: راقب ألفاظك. تعال من هنا.

اتخذتُ زمام القيادة مجدَّدًا، وخلال عدة لحظات أخيرًا وضعْنا أقدامنا على أرضٍ صلبة، ولكن عدُوَّينا اللذين كانا يعرفان طريقهما جيدًا كانا قد وصلا إلى الشط في نفس الوقت خلفَنا على بُعد مرمى حجر. كان يمكنني أن أرى الدماء على رأس سكويكي، والغضب الشديد في عينَيه اللئيمتَين. وكان يُمكنني أن أرى الشعر القادم من أذن القاتل، والغضب الأحمر على وجهه الأشبه بالطبق، أعترف أنني صرختُ مرة أخرى بالتأكيد. زعقتُ كأرنب مُصاب، ودون أن أنظر ويد تويكي في يدي، فررتُ إلى شارعٍ ضيق ودخلتُ أول زاوية.

– أسرِع.

راكضين في خطوطٍ متعرِّجة بين عرباتٍ ثقيلة مُحمَّلة، تجذبها خيول. كنا نركُض بزاوية عبر الشارع في اتجاه المنعطف القادم.

كنتُ ما أزال أسمع الخطوات الراكضة التي تتبعنا وأنا مقطوعة الأنفاس، مُبتلَّة الوجه والفستان، شاعرة بحرارة اليوم بشكلٍ قوي.

تويكي كان يفقد القدرة على مُلاحقتي وأنا أجرُّه جرًّا، كنتُ أشعر بألَمِه مع كل خطوة. وقدماه الحافيتان قد تقرَّحَتا مع كل لمسة للأحجار الصلبة تحت قدميه.

وكان الطريق يتَّجه إلى أعلى، هاربَين من النهر.

– هيَّا بنا.

– لا أستطيع.

قالها الصبيُّ لاهثًا مُحاولًا أن يُحرِّر يدَه من يدي، شددتُ قبضتي عليها: بالتأكيد تستطيع، يجِب عليك.

– أنتِ اذهبي، أنقِذي نفسك.

– لا.

أُغمض عينيَّ في خوفٍ أعمى، وأنظر حولي ونحن نركض. يبدو أنَّنا نصِل إلى نهاية صفِّ العربات، ونهاية رصيف الميناء والمستودعات. نحن الآن نركض في الشوارع الفقيرة حيث البنايات الرثَّة، والمتاجر الأكثر رثاثة.

بائع أسماك، محل رهنيات، مُصلح شمسيات، وباعة مُتجولون.

«بلح البحر الحي.. محارات حية»

«المثلجات اللذيذة.. مثلجات الفراولة الباردة اللذيذة»

كان هناك بشر.. كان هناك عامل نظافة بعربة يجرُّها حمار، ورجل يدفع عربة يدٍ مليئة بالخردوات، وامرأة وفتيات يرتدين القبَّعات والمآزِر التي يجِب أن تكون بيضاء ولكن قد بهتت إلى لونٍ أقرب لِلَون الفُطر.

كانوا بشرًا ولكن لم يكونوا من النوع الذي قد يساعدنا، ولم يكن هناك ما يكفي منهم حتى يستطيع فتًى حافي القدمَين أن يذوب وسطهم؛ فما بلك بفتاةٍ منقطعة الأنفاس عارية الرأس، ترتدي فستان أرملة مقطوعًا ومُغطًّى بالدماء.

– توقَّفا.. لصان.

جاء الصوت من خلفنا، مَبحوحًا، ولكن ما يزال عاليًا.

- أوقِفا هذَين الوغدَين.. الحقيرين.. نشالين.

استدارت الأوجه لتُحدِّق بي أنا وتويكي، ولكنَّنا هربنا من خلال شارع الخردوات.

محلات أثاث مُستعملة.. ملابس مستعملة.. قبعات مستعملة.. أحذية مستعملة.. ملابس مستعملة مرة أخرى.. الوجوه من حولِنا كانت تبدو كضباب، بفعل الحرارة والهلع، ولكنَّ واحدًا من تلك الوجوه الضبابية تعرَّفتُ عليه؛ لقد رأيت ذلك الوجه من قبل ولكن أين؟

وبينما نركض تذكَّرت: تويكي سريعًا.

جذبتُه من الشارع وانطلقنا ناحية ممرٍّ ضيق بين منزلين سكنيَّين مُتداعِيَين، وانعطفنا بجوار حظيرة بقَر وهربْنا ونحن نسمع أصوات البقر القذِرة من خلف المباني، ورائحة حمار وماعز وإوزة ودجاجة.

انعطفنا مرة أخرى.

- لن تستطيعا الهرَب.

الصوت المخيف تردَّد من خلف حظيرة البقَر.

كان قريبًا جدًّا.

- استسلِما!

هتف صوتٌ ثانٍ حاد.

صرخ «تويكسبيري»: حمقاء.

تقريبًا كان يُحدِّثني.

– لماذا ندور في دائرة؟ سيلحقان بنا.

– سترى، اتبعْني.

تاركةً يده، وتاركة آخِر ذرَّةٍ من التحفُّظ مزَّقتُ الجزء العلوي من ردائي راكضةً في زقاقٍ قذر، دفعتُ ساعدي إلى الأمتعة المخبأة حول بطني، لامستْ أصابعي الأوراق فسحبتُ واحدةً مُخبِّئة إيَّاها في كفي، وأنا أنعطف للركن الأخير مرة أخرى عائدة مرة أخرى للشارع.

اندفعت نحو محل ملابس مُستعملة، كانت صاحبة المحل واقفةً على الباب، متأمِّلةً الشارع ومُستمتعةً بالنسيم البارد، ولكن حين رأتني متجهة ناحيتها تغيَّر تعبير وجهها المسترخي إلى توجُّس.

بدلًا من أن تبدو كضفدعة بدت كفأرٍ تحت مِخلب القط.

– لا.

شهقتْ قائلة وأنا أركض ناحيتها: «كتر» سيقتُلني.

– ذلك أكثر ممَّا تساويه حياتي!

لم يكن هناك وقت للنقاش؛ تويكي وأنا كان لدينا لحظات قبل أن يظهر الشريران من خلف الزاوية ويَرَيانا.

في تلك اللحظة كنتُ قد وضعت ورقة بنكنوت من فئة المائة جنيه في يدِ من أظنُّ أنها السيدة «كالاهان»، وجذبت «تويكي» من كُمِّه، لأجرَّه معي إلى محل «كالاهان» للملابس المستعمَلة.

ألهثُ مُلتقطةً أنفاسي ونحن ننطلق إلى غرفة قاتمة قذرة فوضوية، والتي شعرنا أنها ضيقة كفُرن. على جانبٍ من الحائط عُلِّقت عباءات ومعاطف. كي نختبئ سريعًا غُصْنا في ثنايا تلك الملابس، راقبت الباب الأمامي مرتجفةً مُطبقة اليد مُنتظرةً لأرى إذا كانت رشوتي ستنجح.

همس تويكي: اختبئي تحت المنضدة.

هززتُ رأسي أن «لا»، وأنا مُستعدة للفرار، مُحدِّقة إلى الباب الأمامي والنافذة. رأيت كيف انشقَّ المارَّة ليفسحوا مجالًا للقاتل الضخم وتابعه ذي الصوت الحاد وهما ينطلقان بسرعة كبيرة في وسط الطريق، ماسِحَين بأعينهم الغاضبة في كل الاتجاهات.

رأيتُ الضخم يمسك بواحدٍ من المتسكعين من ياقته يكاد أن يرفعه من على الأرض، أشار المسكين باتجاهنا. أين ذهبت السيدة كالاهان؟ أنا لا أعرف، ولكن ها هي مرة أخرى كانت واقفة مُوجِّهة ظهرها لي. بدت كسلحفاة ترتدي مئزرًا يمتد خَيطه على وسطها.

عدُوُّنا ذو الوجه البيضاوي، وتابعه تقدَّما باتجاهها، كانا يفُوقانها طولًا حتى سكويكي الضعيف كان أكثر طولًا منها، ولا أعتقد أنني شخصيًّا كنت سأتمكن من مُجابهة نظراتهما المخيفة، ولكن المرأة العجوز احتلَّت المدخل

كسَدٍّ. رأيتها تهزُّ رأسها ورأيتها تُشير ناحية نهاية الشارع، ورأيت أشعة الشمس القادمة من الباب تدور حولها كهالة قِدِّيسين مجيدة، ورأيت الشريرَين استدارا ليرحلا.

مُتعلقةً برداء أحدهم القديم كي أتماسك، ارتخى جسدي على الحائط شاعرة بالراحة.

تويكي ثنى جسده ليسقط على الأرض كالغريق.

السيدة كالاهان بحكمةٍ لم تأتِ عن فورها بعد رحيلهما، ولكنها وقفتْ أمام الباب لبرهة.

وقتَ أن دخلت كنتُ بالفعل قد استرجعتُ قوتي، ووجدت غرفةً خلفية بها صنبور ماء.

غمستُ فانلةً حمراء باهتة ووضعتُها على وجه تويكي. عندما وقف وجَّهت انتباهي لقدميه المتألِّمتين، ماسحة عليهما بخرقةٍ محاولة أن أزيل القذارة والدماء دون أن أؤلِمه كثيرًا.

كنت أفحص باطن قدَمَيه المصابتين حين جاءت مُنقذتنا الشبيهة بالضفدعة.

أغلقت باب المحلِّ وسكَّرتُه، أنزلت الستائر وتهادت إليّ.

– حسنًا.

قالت:

– في يومٍ أنتِ أرملة حزينة، اليوم التالي تَصيرينَ فتاة منكوشة الشعر، وتهرُبين من «كتَر» و «سكويكي».

– بالتأكيد.. ومن يكون هؤلاء السادة؟ لم تُتَح فرصة للتعارُف.

– لا شكَّ في ذلك، وتلك ربطة بطني التي تستخدِمينها كخِرقة.

وقفتُ قائلة: يا إلهي الرحيم أعتقِد أني دفعتُ لكِ ثمنها.

واجهتْني دون ابتسامةٍ أو بهجتِها التي كانت مثل العصفور صباح اليوم، أعتقد أنها لن تدعوني بطَّتي بعد الآن.

قالت: ما أعطيتِني إيَّاه ذهب إلى الجيران؛ فالآخرون رأوا أين ذهبتِ.

ولا بدَّ أن ذلك كان حقيقيًّا نوعًا ما، فقد اختفتْ من الباب الأمامي لتتفاوَض مع الواقفين من أجل صمتِهم، ولكن من الدهاء الذي يُمكنني أن أراه في عينَيها فكان نوعًا ما غير حقيقيٍّ أيضًا.

لقد وعدت الجيران ببعض الشلينات، أو ربما بعض الجنيهات على الأكثر، ومع ذلك كان هناك شيء صادق في كآبة وجهها وهي تقول لي: من الأفضل أن يكون هناك المزيد ممَّا أعطيتِني إيَّاه، فـ«كتر» سيُمزِّق أحشائي لو عرف، تلك حياتي التي أخاطر بها من أجلك.

قلت لها: لو وفَّرتِ لي ما أحتاجُه سيكون هناك المزيد.

وعلى ذلك فإننا في اليوم التالي أنا وتويكي خرجْنا في الخفاء من محلِّها عن طريق الباب الخلفي، وقد استعدْنا قوَّتنا، وتحوَّلنا تمامًا.

كنا استخدمنا مطبخها القذر كمأوًى حيث كانت تسكن في ثلاث غرف في الطابق الأول فوق المحل، وقبِلْنا عصيدتها المتكتِّلة بالكثير من العرفان. نِمنا؛ أنا على أريكةٍ ذات رائحة كريهة، وتويكي نام أرضًا على غطاء.

استحمَمْنا ووضعْنا مرهمًا مصنوعًا لضرْع البقر على قدمَي تويكي، ثم لففْناهما في بعض الضمَّادات.

وارتدينا ملابس مستعملة من محل كالاهان، وحرقْنا ملابسنا القديمة في فُرن المطبخ.

لم نتحدَّث، ليس حتى لنُخبر بعضنا بأسمائنا؛ فمُضيفتنا ذات الوجه غير الودود لم تُوجِّه إلينا أي أسئلة، ونحن لم نتطوَّع بأي معلومات، تويكي وأنا لم نتحدَّث حتى مع بعضنا بعضا خوفًا من أن تسمَعَنا، لم أكن أثِق بها، ولم يكن لديَّ شكٌّ أنها ستفرِّق بيني وبين مالي إذا عرفتْ أين أحتفظ به؛ لذا فإني لم أنزع ملابسي قطُّ في حضورها، ولم أنزع المشدَّ على الإطلاق حتى حين ذهبتُ إلى النوم؛ فقد كانت قطعة الملابس تلك التي كرهتُها من كل قلبي قد صارت أهمَّ وأغلى ما أملك؛ أهم شيء ألا أُضيِّق المشد. كانت الأجزاء الحديدية به قد أنقذت حياتي، وتصميمه القاسي قد أخفى حشوَ الأرداف ومُحسِّن الملابس اللذين خبأت فيهما أموالي.

كنت أومن وأتمنَّى أن السيدة «كالاهان» –لو كان ذلك اسمها الحقيقي– لن تكتشف ذلك السر. تحدَّثنا فقط في حدود العمل؛ فستوفِّر لنا من محلها ملابسَ غير باليةٍ من أجل صَبي، وقُبعة وحذاء، وجوربًا سميكًا.

وبالنسبة لي؛ بلوزةً وتنُّورة قديمة كي أبدو ككاتبةٍ أو فتاة مبيعات، مصنوعَين من خاماتٍ خاصة، ولهما جيوب، وسُترة أيضًا بجيوب، حافتها واسعة لتكون مناسبةً فوق التنُّورة. وقفازات ليست فاخرة، وقبعة لا تبدو قديمة جدًّا، وتُساعدني في تزيين شعري.

شعرتُ أني عارية في أعين العالم وأنا خارجة من المكان دون غطاء الوجه الأسود الخاص بالأرامل الذي كان يُخفي وجهي، ولكن الحقيقة هي أنه حتى أخوايَ لم يكونا ليتمكَّنا من التعرُّف عليَّ.

نظرت بصعوبة من خلال النظارات الأنفية المشبوكة على أنفي كمِثل طائر معدني غريب. وفوق النظارات كان هناك شعر مُستعار ليُزين ويخفي جبيني، ويساعد النظارات على تغيير مظهري، وفوق الشعر ارتديتُ قبعة من القشِّ مُزينة بالشرائط والريش كانت تُشبه أي قبعة قشٍّ أخرى قد ترتديها أي شابة مكافحة في المدينة.

قلتُ للسيدة كالاهان: والآن أحتاج فقط إلى مظلَّة.

أعطتْني واحدة مصبوغة بلونٍ أخضر بشِع ولكنه كان رائجًا، ثم اصطحبَتْنا إلى الباب الخلفي وأشارت لنا بيدِها؛ فوضعتُ في كفِّها كما وعدتُها ورقة بنكنوت أخرى وخرجْنا لتُغلق خلفَنا الباب دون كلمة.

حين وصلْنا إلى الشارع كنتُ أُمثِّل أني أواجِه صعوبةً في المشي وكأنني نصف عمياء. أتحسَّس الطريق بمظلَّتي المطوية، فعلتُ ذلك جزئيًّا كتَمويهٍ وجزئيًّا حتى يستطيع تويكي بقدَمَيه اللتين لا تزالان تؤلِمانه أن يتظاهر أنه يمشي ببطءٍ من أجلي.

ملابسنا لم تكن جديدة ولم تكن بالية، لم تكن ملابس أغنياء ولا ملابس فقراء.

أمَّلتُ أن نستطيع الهروب من أي نظراتٍ فضولية، حيث إني لم أُرِد أن يحمل أحد أخبارنا إلى «كتر». ولكني لن أحتاج إلى أن أقلق؛ فمِن حولنا كان الجميع يمارس أعماله بصخبٍ غير مُلاحِظين إيَّانا على الإطلاق.

لندن.. تلك المدينة العظيمة المصنوعة من الطوب والحجارة، تبدو دائمًا في حالة غليان بنشاطٍ بشري دائم. رجل بعربة يد كان يصيح: بيرة بالزنجبيل.. باردة وطازجة.. بيرة بالزنجبيل.. دعها تُبرِّد حلقك المغبَّر.

عربة مياه مرَّت بنا، من خلفها كان صِبية ينظِّفون الطريق بالمقشَّات.

رجل توصيل كان يبدِّل على دراجةٍ ثلاثية عجيبة، حيث كان هناك عجلتان في المقدمة بدلًا من المؤخِّرة، وصندوق كبير مربوط بذراع العجلة.

على الناصية وقف ثلاثة أطفال ذوو شعر داكن يغنُّون في تناغُمٍ كالملائكة بلُغةٍ لم أعرفها.

كان أوسطهم قد مدَّ يديه بكوبٍ صدئ يطلُب بنسات، من خلفه وفوقهم كان هناك رجل رثُّ الثياب واقفًا بعلبة طلاء على السلَّم وفرشاة، يلصق إعلانًا عن منظف أحذية.

رجال في سُترات بيضاء وسراويل بيضاء يعلِّقون إشعارَ حجْرٍ على باب واحدٍ من المباني السكنية. تساءلت للحظةٍ: ما نوع المرض اللَّعين الذي جلبَه نهر التايمز النتِن؟ وإن كنتُ سأموت من الكوليرا أو الحُمَّى القرمزية بعد أن حططتُ في مركب «كتر».

«كتر».. ذلك الهمجي الساحر. في واحدٍ من جيوبي بجانب الأموال وأشياء أخرى مُفيدة حملتُ قائمةً كتبتُها في ساعات أرقٍ في الليل.

لماذا كان «كتر» يفتِّش في القطار؟

ولماذا تَبِعني؟

لماذا ظنَّ أنني أعرِف أين أجد «تويكي»؟

ما الذي كان يريده من «تويكي»؟

لماذا أرسل برقيه.. لـ « سكويكي» ليبحث عن « تويكي» على أرصفه.. الميناء؟

ما الذي كان يقصده حين قال الشيء نفسه؟

هل هو مختطف محترف؟

وكيف عرف أيَّ شيءٍ عن «تويكي»؟ وعن الشرق الاعظم؟

كيف حقًّا؟

لقد أخبرتُ المفتش « ليستراد» ومدام... ماذا كان اسمها؟ تلك الـ.. البريديتوريان قد سمِعَتْنا، هل أخبر المفتش «ليستراد» آخرين؟

ربما.

ولكن بالتأكيد كان سيأخُذ خطواتٍ ما للتحقُّق من المعلومات أولًا، ولكن تلك البرقية لا بدَّ أنها أُرسلت لـ«سكويكي» على الفور.

إمممم...

كانت تلك أفكاري بينما أنا ورفيقي الأعرج كنَّا قد دخلنا لحيٍّ أفضل، هنا وجدْنا متنزَّهًا نوعًا ما؛ كان رقعة من الحشائش تُحيطها أربع أشجار، تحتها كانت النساء تدفع عربات الأطفال ورجل كان يصيح كالحمار: جولات فرِّح طفلك.. فقط ببنسٍ واحد.

بجانب المتنزَّه رأيتُ عددًا من عربات الأجرة، أستطيع أن أستأجِر واحدةً حتى لا يضطرَّ اللورد الصغير أن يتألَّم أكثر من ذلك ماشيًا على قدمَيه.

حتى الآن كنَّا مُحتفظين بحذَرِنا ولم نتحدَّث على الإطلاق، ولكن حيث إنَّنا كنَّا قد تركنا مطاردة «كتر» خلفنا؛ فقد التفتُّ لرفيقي وابتسمت.

- حسنًا تويكي.

- لا تُناديني بذلك.

اعتدلتُ وأنا أقول: حسنًا، لورد تويكسبيري من باسيلويذر أو لا...

كان حنَقي جعلَني لا أفكر وخطرتْ على بالي فكرة الآن فسألت: ما الذي عليَّ أن أناديك به؟ ما الاسم الذي اخترتَه لنفسك حين هربْتَ؟

- أنا...

ثم هزَّ رأسه، والتفت بوجهه بعيدًا: لا عليك، لم يعُدِ الأمر مُهمًّا.

- لماذا؟ ما الذي ستفعله؟

- لا أعرف.

- أما زلتَ تريد أن تذهب إلى البحر؟

استدار ليُحدِّق إلي: أنت تعرفين كلَّ شيء، من أنتِ؟ هل أنتِ حقًّا تقربين لـ«شيرلوك هولمز»؟

عضضتُ شفتيَّ حيث شعرتُ أنه ليس آمِنًا أن أُخبره أيَّ شيء أكثر عن نفسي. فقد كان يعرف الكثير بالفعل، لحُسن الحظ وفي تلك اللحظة صاح بائع الصحف من الزاوية بالقُرب من موقف عربات الأجرة: اقرأ الآن، طلبوا فديةً على «فيسكونت تويكسبيري من بسيل ويذر»...

- ماذا؟

هتفت: ذلك غير معقول.

كدتُ أن أنسى إكمال تمثيل أني بالكاد أرى، وهُرعت لأشتري جريدة.

تطوُّرٌ درامي في قضية الاختطاف.

قرأتُ العنوان، ومرة أخرى كانت صورة «تويكي» هناك. جالسًا بجواري على دكَّة في الحديقة حتى يتمكن كلانا من رؤية الجريدة في نفس الوقت.

أصدر تويكي صوتًا خافتًا في قنوط: تلك الصورة.

قلتُ له: لقد رآها العالَم بأكمله.

أعترِف أنني قلتُها بدرجةٍ ما من التشفي. بعدها حيث إنه لم يرُدَّ على الفور؛ تأمَّلتُه، لأجِد أنَّ وجهه قد احمرَّ من الخِزي، ثم قال: لا أستطيع العودة، لن أعود أبدًا.

اختفت كل البهجة وأنا أسأل: ولكن ماذا لو تعرَّف أحدهم على الصورة؟ السيدة «كالاهان» على سبيل المثال.

– هي؟ متى رأيتِها تنظُر إلى جريدة؟ لا يمكنها القراءة حتى. في تلك الأنحاء لا أحد يستطيع القراءة، هل رأيتِ أيَّ بائع صحف على أرصفة الميناء؟

كان مُحقًّا بالطبع، ولكن بدلًا من أن أعترف بذلك، فقد وجَّهتُ انتباهي إلى الكلمات الموجودة في المقال.

«في تطوُّرٍ مُفاجئ للأحداث وفي صباح هذا اليوم جاءت مطالبة بفدية غير موقَّعة لمنزل «باسيلويذر» في بلفدير، المكان الذي كان موقع اختفاء فيسكونت تويكسبيري ماركيز «باسيلويذر»، بالرغم من اكتشاف رئيس

المحقِّقين «ليستراد» أدواتٍ بحرية تخصُّ اللورد الصغير في مخبئه الذي صنعَه في واحدة من الأشجار».

- أوه لا.

همس «تويكي» وهو مُنزعج والكرْب على وجهه.

قرأتُ دون تعليق.

«وكان المحقِّق قد بدأ تحرِّيات حثيثة على أرصفة ميناء «لندن»، حيث أكد عدَّة شهود أنهم رأوا الصغير في نفس يوم اختفائه

(يوم واحد بعد اختفائي، الكثير حدث منذ ذلك.. من صعب التصديق أنَّ ذلك كان منذ ثلاثة أيام فقط حين تركتُ منزلي في فرنديل)

يبدو الآن أنَّ الفيسكونت وريث لقب وثروة بسيل ويذر قد اختُطِف بالفعل. وصلتْ رسالة الفدية مع البريد الصباحي، كانت رسالة قصيرة مكوَّنة من عدة أحرف مجمَّعة مقصوصة من الجرائد، ولُصِقت معًا مطالبةً بمبلغٍ كبير، وبناءً على رغبة الأسرة فإنَّ ذلك المبلغ لن يُعلن عنه.

وحيث إنه لا يوجَد أي دلائل على أنَّ لورد تويكسبيري قد وقع في أيدي فرد أو مجموعة من الأفراد غير المعلومين، فإنَّ السلطات قد نصحت بعدَم دفع الفدية.

بينما مدام ليليا سيبيل دي بابافر البرديتوريان الشهيرة قد نصحت بقوَّة أن تدفَع العائلة الفدية وأن تُجمَع على شكل جنيهاتٍ ذهبية وعُملات تذكارية في

انتظار تعليمات التبادُل؛ حيث إن تواصُلها مع عالَم الأرواح أخبرها أن فيسكونت تويكسبيري بالفعل مُحتجز وحياته في خطر حتى يحصُل الخاطفون على تعاون العائلة التام».

مدام «ليليا»...

كان هناك المزيد، ولكن كنتُ قد توقَّفت عن القراءة عند تلك الفقرة، وحدَّقت إلى...

حدَّقت إلى موقف عربات الأجرة. حقًّا كان ذلك الشيء الوحيد الموجود أمامي أنا وتويكي، عربات أجرة أنيقة وإن كانت خرقاء، ولكن بها مساحة كبيرة، تسير على أربع عجلات، تجرُّها أحصنة لامعة، وأحصنة هزيلة، تؤرجِّح ذيولها وهي تمضغ التِّبن داسَّةً أنفها في كيس سائقي العربات الممتلئين. وسائقو العربات ذوو الملابس الرثة يتلكئون مُنتظرين أن يُستأجروا. ولكن لم يكن ذلك المنظر ما يجذِب عينيَّ، ولكني كنتُ أحاول تذكُّر شكل مدام ليليا، ولكن الكثير قد حدث في الثلاثة أيام الماضية، فلم يتبقَّ غير انطباعي الأول عنها وعن شعرِها الأحمر، ووجهها الكبير وجسدها الضخم، ويديها الكبيرتَين، وقفَّازها الأصفر...

صوت صغير قال: عليَّ أن أعود.

احتجتُ إلى لحظةٍ لأنقل انتباهي وتركيزي على «تويكي»، كان شاحبًا، وسيمًا وصغيرًا.

بادَلَني نظرتي قائلًا: يجِب عليَّ الذهاب إلى المنزل. لا أستطيع أن أدع أولئك الأوغاد المِلاعين يسرقون عائلتي.

هززتُ رأسي: إذن، ألدَيك فكرة عمَّن أرسل بطلب الفدية؟

- نعم.

- وأنت تتخيَّل مثلي أنهم ما يزالون يبحثون عنك؟

- يبحثون عن كلينا، نعم.

- من الأفضل إذن أن نذهب إلى الشرطة.

- أعتقد ذلك.

ولكن نظرتَه ارتحلت مُدققًا في حذائه الجديد (جديد فقط من ناحية حصوله عليه، ولكن من الواضح أنَّ الحذاء قد جُمِّع من عدة قِطع من جلد أحذية قديمة).

انتظرت.

أخيرًا قال: لم يكن الأمر كما توقَّعتُه على أي حال. الميناء أعني.. فالمياه كانت قذِرة، والناس أيضًا. لا يحبُّون الشخص الذي يحاول أن يُبقي على نظافته. يعتقدون أنه شخص مُتكبِّر. حتى الشحَّاذون يبصقون عليَّ. أحدهم سرق أموالي، وحذائي، وحتى جواربي. بعض الأشخاص حُقراء، إنهم يسرقون حتى من الزاحِفين.

- الزاحفون؟

- يطلقون عليهم النيام، لأنهم دائمًا ناعسين، لم أرَ في حياتي أشخاصًا هزيلين مثلهم.

خفض صوته مُكملًا: سيدات عجائز لا يملكنَ أي شيء، لا يملكن حتى القوَّة أن يقفنَ على أقدامهن. يجلسنَ أمام سلالم الملاجئ نصف نائمات، ولا يجدنَ حتى مكانًا يضعنَ رءوسهن عليه. أقرب إلى الموتى لا يستطِعنَ حتى الشحاذة. ولو أشفق أحدهم عليهنَّ ببنس ليشترين الشاي؛ يزحفنَ ليبتعنَه.

شعرتُ بغصَّةٍ في قلبي وأنا أتذكَّر العجوز الصلعاء التي رأيتُها من قبل تزحف على الرصيف، وقد كان رأسها مليئًا بالتقرُّحات.

أكمل تويكي: ثم يزحفنَ عائداتٍ مرةً أخرى.

كان صوته يصير أكثر انخفاضًا ويجد صعوبةً أكبر في التحدُّث مع كل حرف: وهناك يجلسن، ثلاث مرَّات في الشهر يُسمح لهنَّ بوجبةٍ ونوم ليلة داخل الملجأ، ثلاث مرات. وإذا طلبنَ أكثر من ذلك، فإنهنَّ يُسجنَّ، ويُحكم عليهنَّ بثلاثة أيامٍ من العمل الشاق.

- ماذا؟ ولكني اعتقدتُ أن الملاجئ من المفترَض أن تساعد التُعَساء أمثالهن!

- اعتقدتُ ذلك أيضًا، وذهبتُ هناك أسأل إذا كان يُمكنني الحصول على حذاء، فـ... فـ... ضحكوا عليَّ، وضربوني بعصًا. اقتادوني بعيدًا وبعد ذلك... ذلك الرجل البغيض...

كانت ذِكرى «سكويكي» تملأ عينَيه بالدموع فتوقَّف عن الكلام.

– أنا سعيدة أنك قرَّرتَ الذهاب إلى المنزل.

قلتُ له بعد لحظة.

– أمك ستكون في سعادةٍ كبيرة حين تراك، لقد كانت تبكي، هل تعلم ذلك؟

هزَّ رأسه مُتقبلًا دون سؤال أنَّني أعرف مثل تلك المعلومة، فقد بدَوتُ وكأني أعرف كل شيء.

– وأنا متأكدة أنك ستستطيع أن تُفهمها أنه لا يمكنك ارتداء ملابس «لورد فونتلوري» تلك بعد الآن.

قال بصوتٍ هادئ: أي نوعٍ من الملابس لا يُهم، لم أعرف من قبل...

لم يُكمل، ولكن أعتقِد أنه كان ما يزال مُفكرًا في النيام، السيدات نصف الأحياء المِسكينات، اللاتي يزحفن، أو ربما كان يُفكر في حَفاء وتقرُّحات الأقدام و«سكويكي»، وركلِه إيَّاه ككلب.

يومان في لندن جعلاني على درايةٍ بأشياء كثيرة لم أعرفها من قبل، والآن وقد عرفتُ كان سوء طالعي يبدو كشيءٍ لا يُذكر.

وقفتُ وأشرتُ إلى عربة أجرة، عربة مفتوحة جميلة، فقد أردتُ أن نرحل في أناقة.

توبكي أعطاني يدَه كسيدٍ مهذَّب، لأستند عليها وأنا أصعد العربة، بينما وجَّهتُ السائق قائلة: إلى «سكوتلاند يارد».

بجانب مصاحبة « تويكي»، كان لديَّ مهمة خاصة بي في « سكوتلاند يارد».

- إن ذلك جميل.

قال « تويكسبيري» وهو يمسح بعينيه «لندن» من عربة الأجرة، والحصان يُهرول بنا، وسرجُه يهتزُّ أمامنا، صببتُ كامل انتباهي على أفكاري فقط، هناك أشياء يجب الاهتمام بها، بخصوص « كتر»، ومدام ليليا سيبيل دي بابافر، البريديتوريان المنجِّمة.

لم أملك أي دليل، ولكن كلَّما قلبتُ الأمور في رأسي؛ اعتقدت أنه ولا بدَّ أنهم متورطون في حلقة الخطف تلك معًا.

مُستدلَّةً بالآتي: هي أخبرته عني، فمَن سواها يمكن أن يفعل ذلك؟ الحارس؟ الدوقة؟ الخدَم؟ غير مُحتمل.

مِن كل مَن قابلتهم في «باسيلويذر» فقط المحقق ليستراد ومدام ليليا قد سمِعاني وأنا أصف المكان الذي يوجَد فيه لورد تويكسبيري.

واحد من أولئك الاثنين تواصَل مع « كتر»، وجعله يرسل برقية لـ«سكويكي» ليحتجز «تويكي».

بالتأكيد لم يكن «ليستراد»، فالنتيجة واضحة إذن، ولا بدَّ أنها كانت مدام «ليليا».

قال «تويكي»: لم أفهم أبدًا لماذا يضعون السائق في الأعلى بعيدًا عن الحصان، الآن يُمكنني أن أرى؛ فهم يفعلون ذلك حتى لا يعوق رؤية المنظر.

- إممممم.

تمتمتُ وأنا ما أزال أُكمِل أفكاري السوداوية عن مدام ليليا. بينما تظهر وكأنها على جانب الملائك؛ فتلك المرأة في الحقيقة قد تعاقدت مع الشيطانين «كتر» و«سكويكي». أحزُر أنهما يختطفان الضحية، وبعدها يتمُّ التواصل مع مدام «ليليا» لتقدِّم خدماتها المِشبوهة، وبذلك وبينما «كتر» و«سكويكي» يحصلان على الفدية؛ فمدام ليليا أيضًا تحصُل على أجرٍ كبير من أجل رؤياها الروحانية بخصوص مكان الشخص المفقود، والجميع يصير رابحًا، وكلهم في ذلك العمل الفاسد سويًّا.

في حالة «تويكي»؛ فبالرغم من أنه قد هرب في البداية، فقد انتهز «كتر» و «سكويكي» الفرصةَ ليختطفاه بعدَها.

بينما أنا غير متأكدة بالضبط كيف سيُمكنني أن أخبر السلطات دون تعريض نفسي للخطر، أعلم جيدًا أنه يجِب عليَّ أن أفعل شيئًا لأوقف أولئك الأشرار.

قال «تويكي»: كم هو لطيف أن يشعُر المرء بنسمات الهواء على وجهه في يومٍ حار.

فتًى مُزعج، هل يجب عليه أن يُثرثر هكذا مثل العقعق؟

دون أن أجيبه وشفتايَ مُطبقتان وضعتُ يدي في جيب التنُّورة وأخرجتُ قلمًا رصاصيًّا وقطعة ورق مطوية.

وبسرعةٍ وبغضبٍ وأنا واضعة الورقة على ساقيَّ. رسمتُ صورة لرجل في تفاصيلها قليل من المبالغة، وحين رأى «تويكي» ما أفعله توقَّف عن الحديث، وحدَّق بي.

ثم قال: ذلك «كتر».

دون أن أُعلق أنهيتُ الرسمة.

- ذلك «كتر» بكل تفاصيله حتى شعر أذنه، أنت تُدهشينني؛ كيف يمكنك أن ترسمي هكذا!

دون أن أُجيب أقلب الورقة المطوية وعلى المساحة الخالية أرسم شخصًا آخر.

لأني قد وجدتُ نفسي في حالةٍ ذهنية مناسبة، فكري مشحوذ، ونشيطة، تمكَّنتُ من أن أفعلها دون تردُّد، ودون وعي، ودون تفكير.

كانت خطوط القلم الرصاص سريعةً وواضحة. تأتي من مصدرٍ ما عميق بداخل عقلي.

سأل «تويكي»: من هذه؟

مرة أخرى لم أرُدَّ وأنا أُنهي البورتريه الخاص بسيدة مهيبة وكبيرة. فردْتُ الورقة ونظرتُ إلى كلتا الرَّسمتَين معًا، رجل الكاريكاتير والمرأة الكريكاتيرية وقفا جنبًا إلى جنب.

عندها قد عرفت، بالطبع.. لتكون امرأة كلُّ ما تحتاجه هو أن تضع شعْرًا مُستعارًا، وبعض التحسينات والتعديلات والتعزيزات وإخفاء اللازم.

فستان وقبَّعة وقفَّازات. أنا من كل الأشخاص وجَبَ عليَّ أن أعرِف.

رآها «تويكي» أيضًا وهمَّس: إنهما نفس الشخص.

كانت الباروكة الحمراء الفاقعة على ما أعتقد تُخفي شعر الأذن المميَّز، وتجذب الانتباه من الوجه، وبعد التعديلات للشفاه وللرموش وللعينَين.

الأمر سهل. بعضٌ من طلاء الوجه، لا توجَد سيدة محترمة ستعترِف باستخدامها تلك الخدعة، ولكن كنتُ قد سمعت أن بعضهم يفعلها، وليس كأن ذلك الشخص محترم أو حتى سيدة.

قال «تويكي» وهو يُشير إلى الرسومات: لو كان ذلك «كتر»، فمن تلك؟

قلتُ له بالرغم من أن الاسم لن يعني أي شيء: مدام ليليا سيبيل دي بابافر.

– أنا لا يُهمُّني وإن كنتَ أمير ويلز، فستنتظِر دورك مثلك مثل أيِّ شخصٍ آخر، اجلس على مقعدك.

قالها الرقيب الجالس على مكتبه دون أن يرفع حتى عينَيه لينظُر إلينا، واستمرَّ في النظر لأوراقه، وهو يُشير بيده الثخينة ناحية الرواق خلفه.

ابتسمتُ لـ«تويكي» الذي قدَّم نفسه كفيسكونت تويكسبيري باسيلويذر، وبدا عليه الآن أنه لا يعرف إن وجَبَ عليه أن يضحك أو أن يبكي.

همستُ له: سأنتظر معك.

وبشكلٍ ما، وخلال زيارتنا لسكُتلانديارد، كنت سأنجز عملي الخاص.

كما حدث حين أخذتُ دراجتي وانطلقتُ بعيدًا عن كينفورد، فإنَّ أفضل خطةٍ بالنسبة لي الآن هو ألَّا أملك خطةً على الإطلاق.

«تويكي» وأنا جلسْنا على واحدٍ من عدة مقاعد خشبية موضوعة في رواق مظلم ذي أرضية خشبية.

كانت المقاعد فردية، وصلبة، أسوأ من أي مقعد كنيسة جلستُ عليه من قبل.

جالسًا بجانبي تمتمَ «تويكي»: أنت محظوظة بكل ذلك الحشو الذي ترتدينه.

يا له من شيءٍ صادم ليُقال.

- صه!

- لا تقولي لي أن أسكُت، قولي لي مَن أنتِ.

- لا.

أبقيتُ صوتي مُنخفضًا حيث إنه على طول الردهة كانت هناك مقاعد أخرى مليئة بأشخاصٍ في انتظار دَورهم للتحدُّث مع الشرطة، غارقين في محادثاتهم ومشاكلهم الشخصية.

على أي حالٍ لا أحد منهم نظَر لنا أو اهتمَّ بوجودنا.

كان لدى «تويكي» بعض العقلانية ليخفِض صوته وهو يقول: ولكنك أنقذتِ حياتي، ربما. أو على الأقل أنقذتِ شرَفي، وأنتِ... وأنتِ فعلتِ الكثير من أجلي. أُريد أن أشكرك، من أنتِ؟

هززتُ رأسي نافية.

– لماذا تُريدين أن تَبدي كخادمةٍ عجوز؟

– أيها الصبيُّ المروِّع، حافظ على لِسانك.

– أيتها الفتاة المروِّعة، ألن أعرف اسمَك أبدًا؟

– صه! صه!

لا. تمنيتُ ألَّا يعِرف اسمي أبدًا، ولكني لم أقُل له ذلك، ولكن عوضًا عن ذلك مرةً أخرى قلتُ له: صه!

وأنا أمسك بذراعه حيث في بداية الرواق من ناحيتنا فُتح باب ورأيتُ رجلًا مألوفًا يخرج منه.. رجُلان مألوفان.

للحظةٍ شعرتُ أني سأفقد وعيي، وليس بسبب المشدِّ أيضًا.

فلتُساعدني السماء. واحد من الرجُلين كان المفتش «ليستراد»، ولكني أدركتُ من قبل أنَّ قراري بمصاحبة «تويكي» إلى سكتلانديارد به احتمالية أن أقابل ليستراد، وكنتُ واثقة أنه لن يستطيع التعرُّف عليَّ دون رداء الأرملة الذي كنتُ أرتديه حين التقيتُ به لوقتٍ قصير في بسيل ويذر، لا.. ما جعلني أشعُر بضعفٍ وأثار قلقي كان رؤية الرجل الآخر «شيرلوك هولمز».

في عقلي أجبرتُ نفسي على أن أستمرَّ في التنفُّس، وأن أجلس بشكلٍ طبيعي. أن أندمج مع الخشب الداكن من حولي، والمقعد الصلب، والبراويز على الحوائط كما يفعل حجل الدجاج حين يندمج مع الشجيرات.

يا إلهي، يجِب ألَّا يُلاحظاني.

لو أن أيًّا منهما تعرَّف عليَّ فإن الأيام القليلة التي حظيتُ فيها بحُريتي ستنتهي.

ببطءٍ تحرَّكا باتجاهنا غارقَين في محادثة.

بالرغم من أن أخي كان أطول من ليستراد الذي يُشبه النمس، حتى إنه احتاج أن ينحني قليلًا ليُقرِّب رأسه من رأس الرجل الأقصر، بعد أول نظرةٍ مرتبكة تجاههما نقلتُ عينيَّ لقدَمي.

وتركت يد «تويكي»، وأخفيتُ قبضتي المرتعِشة في جيوب التنُّورة.

- ... لا أستطيع أن أصنع رأسًا من ذيلٍ من قضية «باسيلويذر».

جاء صوت ليستراد.

– أتمنَّى أن تُلقي نظرة على تلك القضية يا هولمز.

– هولمز؟

شهق «تويكي» وانتصبتْ قامته بجانبي.

– أذلك هو؟ المحقق الشهير؟

همست: أرجوك اسكُت.

أنا متأكدة أنه شعر بمشاعري القوية من خلال صوتي لأنه أطاعني بالفعل.

شيرلوك كان يقول لليستراد: ليس الأمر بأهمية رغبتي أن تجِد ضبَّاطًا أكثر للمساعدة في العثور على أختي.

كان صوت أخي مشدودًا كوتَرِ كمان، كان هناك شيء في صوته، شيء لم يُقَل جعلني أشعر بفراشاتٍ من المشاعر تُحلق في قلبي بألَم.

– أريد أن أفعل ذلك يا صديقي العزيز.

كان هناك تعاطف في صوت «ليستراد»، ولكن كان هناك أيضًا القليل من الشماتة لو لم أكن مُخطئة.

– ولكن يجب عليك أن تُعطيني أكثر من ذلك لأعمل به.

– الخادم يؤكد أن أمي لم تحتفظ بأي بورتريهات لنفسها أو لإينولا لأكثر من عشر سنوات، امرأة مُحيِّرة.

– حسنًا، ولكن لدَينا ذلك الرسم الذي رسمتَهُ لأختك.

تلك المرة شعرتُ بنبرة فرح في صوت مُحقق سكوتلاند يارد.

ارتفعت يد أخي مُمسكة بذراعه لتوقِفه، الاثنان وقفا أمامي أنا وتويكي مباشرة. حمدًا للعناية الإلهية، وربما للحظ الأعمى، فإنَّ شيرلوك وقف وهو يوجِّهُ ظهره مباشرةً لي.

– انظر هنا يا ليستراد.

صوت أخي لم يكن غاضبًا، ليس بالضبط، ولكن نبرتُه كانت أخاذة من شدَّتها، جعلت قلبي يزدهر فخرًا من أجله، وقدرته على الحصول على كامل انتباه الرجل الآخر.

أخبرَه شيرلوك: أعلم أنك تعتقد أنَّ تلك ضربة كبيرة لكرامتي، إن كلًّا من أمي وأختي مفقودتان، ولا يمكنني أن أجد أي خَيط عن الأولى، ويجب عليَّ أن أشكرك عن المعلومات التي وفَّرتَها لي عن الثانية، ولكن...

قاطعه ليستراد وعيناه تومِضان وتتَّجِه يمينًا ويسارًا: أوكد لك، لم أفكر في أي شيءٍ مثل هذا.

– كلام فارغ. أنا لا ألومك، أنت لستَ أسوأ ممَّن هم أفضل منك.

بيد واحدة مُغطاة بقفَّاز أسود أشاح شيرلوك وكأنه يمحو تلك الجملة المربكة التي قالها للتو، ليستدعي انتباه المحقق مرة أخرى.

– ولكن يا «ليستراد»، أريد أن أُخبرك ألا تشغل ذهنك بالسيدة إيدوريا فيرنيت هولمز، فقد كانت تعرف جيدًا الذي تفعله، وإذا حدث لها مكروه فلا يمكن أن تلوم سوى نفسها.

اعتصَرَ الألم قلبي مرةً أخرى، ولكن لم تكن آلام الفراشات، ولكن ألَم مختلف.

في ذلك الوقت لم أكن أعرف نقطة ضعف أخي العبقري الوحيدة، لم أكن أعرف أن المالنخوليا كانت تجعل كلماته قاسية.

– وعلى أيِّ حالٍ فإن إينولا هولمز حالة مختلفة تمامًا. فإن أختي بريئة ومُهملة، وغير مُتعلمة، وساذجة. حالمة.. أشعُر أنه خطئي أني لم أبقَ معها، بدلًا من أن أتركها في رعاية أخي مايكروفت، فبالرغم من رجاحة عقله، فليس لديه الصبر. لم يكن يفهم أبدًا أنَّ الأمر يحتاج إلى وقت، ليس مجرد سرج لتدرِّب المهر، بالطبع الفتاة هربت، فإن لدَيها روح أكثر من ذكاء.

من تحت نظَّارتي وقصتي تجهَّمت.

قال ليستراد: كان يبدو عليها الذكاء حين تحدَّثتُ معها. فقد خدعتْني، كان يمكنني أن أقسم أنني أتحدَّث مع آنسة في عمر الخمسة والعشرين على الأقل. متوازنة، مُتحدِّثة لبقة، ورصينة...

خفَّ تجهُّمي قليلًا، وشعرت أني أستحسِن ليستراد.

قال أخي: رصينة وخصبة الخيال، ربما.. ولكن نقاط ضعف جنسِها ولا عقلانيتهنَّ يؤثِّران بها. على سبيل المثال لماذا قالت اسمها للحارس؟!

- ربما رغبة في التحدِّي، أو ربما لأنها كانت تريد الدخول، فقد كانت عقلانية كفاية بعد ذلك لترحَل على الفور إلى لندن، حيث سيكون من الصعب جدًّا إيجادها.

- وحيث سيكون من السهل جدًّا أن يحدُث لها أي مكروه حتى لو كانت في الخامسة والعشرين من عمرها وليست في الرابعة عشر.

- وذلك يُعيدنا إلى ما كنتُ أقوله من قبل، فأي شيء يمكن أن يحدُث لشخصٍ في عمر الزهور مثل ابن دوق بسيل ويذر.

في تلك اللحظة تنحنح «تويكي» قائلًا: إحم...

ثم وقف.

لذا فكما ترى لم أملك أي فرصة في التفكير، وبدا لي في ذلك الوقت أنني لا أملك خيارًا؛ فهربت.

بينما كان المفتش والمحقِّق العظيم يستديران ليتأمَّلا الصبي الذي يرتدي ملابس العامة.

بينما يُحدِّقان إليه بدأ الإدراك في النزول عليهما، وقفتُ أنا وتحرَّكت ماشيةً بهدوء.

لمحتُ فقط جزءًا من وجه أخي، فقد كنتُ أعرف كم من النادر أن يتسنى لك رؤية شيرلوك هولمز وقد بدت عليه الدهشة.

كنتُ سأستمتع بتلك اللحظة أكثر من ذلك، ولكني لم أُطِل تباطؤي وأخذت عدة خطواتٍ في الردهة، لأفتح أول بابٍ في طريقي لأدخل وأُغلقه خلفي.

وجدت نفسي في مكتبٍ به عدة مكاتب، كلها خالية باستثناء واحد.

- عذرًا.

قلتُها للشرطي الشاب الذي رفع رأسه من على الأوراق من أمامه وقلت: الرقيب يريدك في مكتب الاستقبال.

في أغلب الظنِّ افترض أني موظَّفة جديدة في سكوتلاند يارد، كاتبة أو سكرتيرة أو شيء من هذا القبيل.

هزَّ رأسه ووقف واتَّجه للخارج، خرجتُ أنا الأخرى ولكن استخدمت النافذة، قفزتُ فوق حافة الشبَّاك وكأني أصعد على الدرَّاجة، ونزلت على الرصيف وكأني أنزل من على الدرَّاجة الناحية الأخرى، كان هناك مارَّة بالتأكيد، ولكن دون أن أنظر لأيٍّ منهم وكأنما ما فعلته بالخروج من شباك مبنًى حكومي هو شيء طبيعي، خلعتُ نظارتي وألقيتُ بها في الشارع حيث دهسَها في لحظاتٍ حصان يهرول، وقفتُ وفردتُ ظهري ومشيتُ في سرعة كما يليق بامرأةٍ شابة عاملة.

وعلى الناصية كان هناك عربة عمومية تقِف، صعدت إليها ودفعت الأجرة وأخذت مقعدي بجانب سكَّان لندن الآخرين ولم أنظر خلفي.

في الأغلب فإنَّ أخي وليستراد كانا ما يزالان يحقِّقان مع تويكي، بينما تحركت الحافلة الكبيرة تهتزُّ في طريقها.

على أي حالٍ كنت أعرف أنهما لن يحتاجا إلى وقتٍ كبير قبل أن يتقفَّيا أثري، تويكي سيُخبرهما أنَّ فتاةً ترتدي زي أرملة قد هربت معه من قارب «كتر»، فتاة اسمها هولمز.

في الأغلب الآن، فإن تويكي قد التفتَ ناحيتي ليُقدِّمني ولكن وجد الخواء ينتظره فيما عدا رسمتَين تمنيتُ أن ليستراد سيُدرك أهميتهما بعد حديثه مع تويكي.

كنتُ نادمة أني تركتُ تويكي فجأةً دون وداع، ولكن لم يكن هناك شيء أستطيع فعله، فعليَّ أن أجد أمي.

كنتُ أيضًا آسفة أني لم أستطع أن أقضي وقتًا أكثر مع أخي شيرلوك حتى لو كنتُ مُتنكِّرة وجالسة أنظر إليه وأسمعه ويزداد إعجابي به.

الحقيقة أني اشتقتُ إليه.

كان هناك الكثير من التَّوق في قلبي كما لو كنتُ دعسوقة، دعسوقة تريد أن تطير إلى المنزل...

ولكنَّ أخي المحقق الشهير لم يكن يهتمُّ بإيجاد أمي فقد كانت تُحيِّره، كل مشاعري المرتبكة تجاهه قد طُوِيت أجنحتُها لتتحوَّل إلى وجعٍ في القلب.

بالرغم من ذلك ربما كان ذلك أفضل، شيرلوك ومايكروفت كانا لا يريدان لأمي أن تعود إلى فرنديل، وبالطبع أمي لم تُرِد العودة إلى هناك، حين أجدها (وليس إذا وجدتها) لن أطلُب منها أيَّ شيء يجعلها حزينة، لم أكن أبحث عنها لأسلُبَها حُريتها، فقط احتجت أن يكون لي أم. هذا كل شيء. أن أكون على تواصُل معها، ألقاها كلَّ فترةٍ لنتحدَّث على كوبٍ من الشاي.

أن أعرف أين هي، وعلى الرغم من ذلك فإن المرء لا يمكنه إلا أن يخاف، ففي مكانٍ ما في عقل المرء هناك تخوُّف أن يكون وقع لها مكروه.

أتخيَّل أنه في الأغلب أن أمي قد ذهبت إلى مكانٍ لا يوجَد فيه مشدَّات، ولا مُحسِّنات ملابس، ولا حشو أرداف ولا قُبعات ولا أحذية، مكان وسط الزهور، وسط الخضرة.

من السخرية أنني باتباع مثلها في الهروب فإني قد ذهبتُ لتلك المدينة الأشبه ببالوعة، ولم أر بعدُ قصرًا أو عربةً ذهبية أو سيدة ترتدي الفرو والماس، وعوضًا عن ذلك فكل ما رأيته هو امرأة عجوز تزحَف على الرصيف ورأسها قد غزَتْه الأمراض الجلدية.

بالتأكيد أمي لن يقع بها الحال إلى تلك الدرجة، لا يمكن أن يحدُث ذلك.. أليس كذلك؟

يجب عليَّ التأكُّد أن هذا لن يحدُث، وكل ما أملكه هو بضع ساعات لأتحرَّك قبل أن تبدأ شرطة لندن كلها في البحث عني.

أنزل من الحافلة في المحطة التالية، وأعبر حيًّا، ثم أوقِف عربة أجرة، ذات أربع عجلاتٍ من أجل أن تكون مُغلقة تمامًا ولا يظهر وجهي، أُخبر السائق: شارع فليت.

وبينما هو يناور خلال حركة المرور الكثيفة في المدينة مرةً أخرى آخُذ الورقة والقلم الرصاصي في يدي لأكتب رسالة:

شكرًا لك يا أقحوانتي

هل تزهرين؟

فلتُرسلي السوسن أرجوك.

كنتُ أتذكَّر بالضبط من كتاب معنى الزهور أنَّ السوسن تعني رسالة، فوضع سوسنة في باقة زهور كانت تُخبر المتلقِّي أن ينتبه لمعنى كل زهرة، كانت الإلهة آيرس اليونانية (التي تعني السوسن) تحمل الرسائل ما بين جبال أوليمبس والأرض عن طريق جِسرٍ من قوس قزح.

كان هناك الكثير من الفقرات الأخرى في كتاب معاني الزهور لم أستطع تذكُّرها جيدًا، وبمجرَّد أن أجد مكانًا للسكن، يجِب عليَّ أن أحصل على نسخةٍ أخرى من الكتاب.

بمرارةٍ كنتُ أندم على فقداني النسخة التي لا تُعوَّض التي حصلتُ عليها من أمي؛ أعزَّ تذكارٍ منها، كتاب الشفرات.

تُرى ما الذي فعلَه «كتر» به، لن أعرف أبدًا (أو على الأقل ذلك ما اعتقدتُه وقتها).

ولكن أكدتُ لذاتي أنني لا أحتاج لأيٍّ غرَض عملي حاليًا (مرة أخرى اعتقدت ذلك).

آخُذ الرسالة التي كتبتُها، وأُحوِّلها إلى شفرةٍ بأن أقلِبَها،

ESAELPSIRIDNES?GNIMOOLBUOYERAM

UMEHTNASYRHCYMUOYKNAHT

ثم أعدل مكان الكلمات.

EALSRDE?NMOBOEAUETAYHYUYNH

SEPIINSGIOLUYRMMHNSRCMOKAT

ثم وأنا أهتزُّ على مقعدي في عربة الأجرة، عكستُ ترتيب الأسطر في رسالتي.

سأضع تلك الرسالة في الإعلانات الشخصية في عمود جريدة «البال مول» والتي كانت أُمي كثيرًا ما تتفقّدها.

وأيضًا في مجلة المرأة الحديثة، وفي جريدة تجديد الرداء. وإصدارات أخرى تُحبُّها.

كانت شفرتي تبدو كهذا

Tails ivy SEPIINSGIOLUYRMMHNSR- » CMOKAT tips ivy EALSRDE?NMOBOEAUE- TAYHYUYNH «your Ivy

كنتُ أعرف أن أمي لا تستطيع مقاومة أي شفرة، وكانت ستعطي تلك الشفرة كامل اهتمامها حين تراها، وكذلك كنتُ أعرف أنه للأسف أن أخي «شيرلوك» الذي كان من عادته أن يقرأ ما يدعوه عواميد العذاب في الجرائد اليومية سوف يلاحظها أيضًا، ولكن بما أنه لا يعرف عن اللبلاب الذي ينمو للخلف على أسوار الحديقة؛ فربما لن يستطيع أن يفكَّ الشفرة. وحتى لو حلَّها، أشكُّ أنه سيفهم أو يربط تلك الشفرة بي.

ذات مرة في وقتٍ يبدو بعيدًا ويبدو وكأنه في عالم آخر ولكن حقًّا كان فقط من ستة أسابيع كنتُ أبدِّل في طريق الريف مُفكرة في أخي، صانعةً قائمةً في رأسي بكل مواهبي لأقارنها مقارنةً خاسرة مع مواهبه، والآن.. وأنا في عربة الأجرة في لندن بدلًا من درَّاجة وجدتُ نفسي أضع في ذهني قائمةً مختلفة من مواهبي وقُدراتي. فأنا أعرف أشياء قد يفشل شيرلوك هولمز حتى في تخيُّلها، حيث إنه فشل في إدراك أهمية حشو الأرداف ومُحسِّن الملابس، حيث وضعتْ أمي أمتعتها به، والقبعة الطويلة التي ارتدتْها، التي أشكُّ أنها قد وضعت الكثير من الأوراق النقدية بداخلها.

أنا على الجانب الآخر قد فهمتُ استخدامات تلك الأشياء وأهميتها، لقد أثبتُّ لنفسي أني ماهرة في التنكُّر أيضًا، وأني أستطيع فكَّ شفرة معاني الزهور. الحقيقة وبينما شيرلوك هولمز ينبذ فكرة الجنس اللطيف، كونهنَّ غير عقلانيَّات وغير مُهمَّات فأنا أعرف في الحقيقة أن عقله المنطقي لن يستطيع أن يفهم.

كنتُ أعرف عالمًا كاملًا من التواصُل الذي تملكه المرأة، ورموزًا سرِّية أتعرَّفها من حافة قُبعة، وتمرُّدًا من محرمة، وخدعةً من مروحة ريش، وتحدِّيًا خفيًّا، ختمًا شمعيًّا، ورسائل يمكن أن تكون موجودة في وضعية طابع البريد، دعواتٍ، وعباءة أنيقة لمؤامرة أستطيع أن ألفَّ نفسي بها.

توقعتُ أنه دون صعوبةٍ كبيرة كان يُمكنني أن أخفي أسلحةً ووسائل دفاع ومُؤنًا داخل مشد. يُمكنني أن أذهب إلى أماكن وأُتمَّ أعمالًا لا يستطيع شيرلوك هولمز فهمها أو تَخيُّلها أو أن يُخطط لها.

لندن نوفمبر ١٨٨٨

من مسكنها خرجتِ الغريبة مُرتدية الأسود بالكامل، في وقتٍ متأخِّر من الليل، لتتجوَّل في الشوارع في الجنوب الشرقي، ومن خصرها المستقيم تأرجحَتْ مسبحة. كانت خرزاتها الأبنوسية تقرقِع مع كل خطوة. رداء الراهبات كان يُغطي جسدَها الرفيع من رأسها وحتى أخمص قدمَيها. في يدِها حملت طعامًا وبطانيَّاتٍ وملابس للعواجيز المساكين اللاتي كنَّ يحتمينَ برصيف الملجأ.

كان يُطلق على أولئك النساء الزاحفات «النيام»، وتُعطي أيضًا أيَّ شخصٍ آخر تجده ذا حاجة. قاطِنو الشوارع تقبَّلوا عطفها وأطلقوا عليها «الأخت». لا أحد يعرفها بأيِّ اسمٍ آخر؛ حيث إنها لا تتحدَّث أبدًا، وكأنها أخذت نذور صمتٍ وعزلة، أو ربما لا ترغَب في التَّباهي بحديثٍ مُثقَّفٍ حتى لا تخونها لهجتُها وتظهر كواحدةٍ من النبلاء.

صامتة تأتي وتذهب، موضوع يُثير الفضول في البداية، ولكن يكادون لا يلاحظونها بعد مرور عدة أيام.

في منطقةٍ أكثر ثراءً في الجزء الخاص بالفنانين في المدينة، أحدُهم يفتح مكتبًا في نفس المبنى القُوطي الذي كانت مدام ليليا سيبيل دي بابافر المنجمة كانت تعقد جلساتها من قبل، أو جلساته كما عرَفْنا بعد صدمة القبض عليه.

كانت فضيحة الموسم، وبعد أن ذهب ساكن المكان للسجن، ظهر في ذلك المنزل الذي تُطلُّ نافذته على الخليج لافتة أنه قريبًا سيستقبل دكتور «ليزلي تي راجوستين» البريديتوريان العلمي وبالطبع يجِب أن يكون العالِم رجلًا، ورجلًا مُهمًّا، مشغولًا بالجامعة أو بالمتحف البريطاني، ولذلك السبب بالتأكيد فإنَّ أحدًا لم يرَ بعد دكتور «ليزلي تي راجوستين»، ولكن كل يوم فإن سكرتيرته تأتي وتذهب، واضعةً أشياءً في المكتب الجديد، ومُتولِّيةً شئونه، هي شابة صغيرة عادية، لا يُميزها سوى كفاءتها، مثلها مثل آلافٍ من الشابّات اللاتي يعملن في المكتبات، وفي الاختزال، يعشنَ في لندن ليستطعن إرسال القليل من المال لعوائلهن.

كان اسمها هو «إيفي ميشيل».

يوميًّا كانت «إيفي ميشيل» تتناول غداءها مع النساء العاملات في غرفة الشاي القريبة من مكان عملها كما يليق بفتاةٍ محافظة تعيش وحيدةً في المدينة الكبيرة، فهناك كانت مَحميَّةً من أي تواصُلٍ مع ذَكَر لا ينوي خيرًا.

تجلس وحيدةً لتقرأ جريدة البال مول، ودوريّاتٍ أخرى، وكانت قد وجدت بالفعل في واحدةٍ من تلك الإصدارات في قسم الإعلانات الشخصية شيئًا أثار اهتمامها جدًّا.

أثار اهتمامها لدرجة أنها قصَّتْهُ من الدورية لتحتفظ به، كان يقول:

نصائح «آيرس لإيفي»

ABOMNITEUNTNYHYATEUASRMLNRS ML

OIGNHSNOOLCRSNHMMLOABIGOE

في بعض الأحيان وحيدة في بيتها الرخيص، كانت الآنسة «ميشيل» أو الأخت الخرساء تسحب تلك الورقة المقطوعة من جيبها لتجلِسَ ناظرةً إليها، بالرغم من أنها قد فكَّتْ شفرتها منذ زمن.

«أنا أزدهر في الشمس. ليس الأقحوان فقط ولكن أيضًا الورود المتساقطة».

تلك الرسالة قد بُعثت إليها من قِبَل امرأة حُرة، من مكانٍ لا يوجَد فيه دبابيس شعر، ولا مشدَّات، ولا مُحسِّنات ملابس، ولا حشو أرداف، مع الغجر في الأراضي الواسعة.

إذا كانت ستتنقَّل إلى مسافه.. طويله.. لماذا لم تستخدِم درَّاجه.. ؟

لماذا لم تستخدِم البوابه.. ؟

لو كانت ارتحلتْ عبر البلاد سيرًا على الاءقدام إلى أين كانت ذاهبه.. ؟

فرضية واحدة تُجيب على الأسئلة الثلاثة؛ المرأة الهاربة لم تكن لتقطع مسافة كبيرة، احتاجت فقط أن تمشي إلى المنطقة الريفية حيث قابلت عربة رحَّالة

إنجليز اتَّفقت معهم من قبل؛ ففي كتاب معاني الزهور فإنَّ الورود المتساقطة تعني التجوُّل بحريةٍ كحياة الغجَر.

ولو كان هناك لمسة من اللصوصية في طبيعة الغجر؛ فيبدو أنَّ هناك لمسة كتلك مع يدوريا فيرنيت هولمز كما بدا في تعاملاتها مع مايكروفت هولمز، ويبدو أنها تستمتِع بوقتها.

سؤال واحد ما يزال دون إجابة: «لماذا لم تأخذني أُمي معها؟».

لم تعُد تلك الفكرة تُمثِّل لها نفس الإزعاج الذي كانت تُسبِّبه من قبل، فتلك المرأة المحِبَّة للحرية قد كبُرت في السن، وشعرت أنَّ لدَيها وقتًا قصيرًا لتحقيق حُلمها قبل أن تموت، وقد فعلت ما في وُسعها من أجل ابنتها التي أنجبتْها متأخِّرة، ربما في وقتٍ ما في الربيع حين يكون الجوُّ دافئًا كفاية للارتحال، ستنطلق باحثةً عن والدتها بين الغجَر.

تُخطط الفتاة التي تمشي وحيدة، ولكن في تلك الأثناء وبينما هي تتأمَّل قصاصات الجرائد فإنَّ وجهها الطويل الحاد يَلين، ويكاد يُصبح جميلًا، وقد ارتسمت بسمةٌ على وجهها لأنها تعرف أنَّ في لغة الزهور السِّرية أن أيَّ وردةٍ من أيِّ نوعٍ تعني الحُب.

النهاية